ABU ABDO ALBAGL

حنيف قريشي

الجسد

رواية

مدونة أبو عبدو

ترجمة: خالد الجبيلي

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

SBBS

الجسـد

* حنيف قريشي
* الجسد
* ترجمة: خالد الجبيلي
* جميع الحقوق محفوظة © Copyright
* الطبعة الأولى 2006
* موافقة وزارة الإعلام رقم 92049
* الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التـــــــــوزيع: دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

حنيف قريشي

الجسد

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

العنوان الأصلي للكتاب:

The Body

1

قال: «اسمع، تقول إنك لا تستطيع أن تسمع جيداً وإن ظهرك يؤلمك. إعلم أن جسدك لن يكّف عن تذكيرك بأنك مريض وعليل. هل تريد أن تفعل شيئاً إزاء ذلك؟».

فأجبته: «إزاء هذه الجثة الهرمة شبه الميتة؟ بالتأكيد، ماذا يمكنني أن أفعل؟»

«ما رأيك لو استبدلتها وحصلت على جسد جديد؟».

كانت دعوة لم يكن بوسعي أن أرفضها أو أن أتبنّاها. وبالتأكيد، لم يكن اتخاذ قرار بهذا الصدد أمراً بسيطاً. فعندما سمعت اقتراح هذا الرجل، مع أني أردت أن أرفضه جملة وتفصيلاً باعتباره ضرباً من الخبل والجنون، لم يكن بوسعي إلا أن أتمعن في الأمر وأقلّبه على جميع وجوهه. فقد أثارتني طوال تلك الليلة فكرة كانت حتمية ــ وما تزال منذ فترة من الزمن ــ وأضحى لزاماً عليّ أن أواجهها الآن.

بدأت هذه «المغامرة» في حفلة لم أكن أرغب في حضورها.

ومع أن أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات، كانت أيام عزّي وعنفواني، لم أعد أحبّ أن يخترق صوت الموسيقى المرتفع أذني، وأصبحت أقدّر الصمت بمختلف أشكاله وأنواعه. كما لم أعد مهووساً بالطعام المشوي نصف النيئ.

هل تريد أن تسمع شيئاً عن صحتي؟ حسناً، فأنا لست مصاباً بمرض معين. لكني في منتصف الستينيات من العمر، وقد أضحى

سريري قاربي في السنوات الأخيرة. وأصبحت أعاني من ألم شديد في ركبتي وظهري. وأضحيت أعاني من البواسير والقرحة والماء الزرقاء في عيني. وعندما أتناول طعامي، لم يعد من المستغرب أن تخرج أجزاء من أسناني وأنا أمضغ الطعام. وبدا أن أذنيّ بدأتا تفقدان التركيز مع مضي الأيام، وأصبح لزاماً على من يكلمني أن يصيح في أذني. ولم أعد أحضر حفلات لأنني لم أعد أحبّ النهوض إذا جلست. فإذا جلست أصبح من الصعب على الآخرين أن يحدثوني، لا لأني لم أعد أهتم بما كانوا يقولونه، بل لأني أصبحت أجد صعوبة في سماعهم. وإذا اعتراني الملل لم أعد أرغب في أن أخرج وأتمشى، مما جعل الناس يظنون أني فظ أو متعجرف.

وكان لديّ أصدقاء وضعهم الصحي أسوأ حالاً من وضعي أنا. فإذا حالفك الحظ سمعت عنهم. وأنا أحبّ الشراب، لكني لم أعد أستطيع أن أفعل ذلك إلا في البيت، لأني أصبحت أسكر بسرعة وبسهولة. فما هي إلا بضعة أقداح من الشراب حتى يصبح بإمكاني أن أفهم «لاكان» حق الفهم.

أما زوجتي مارغوت فهي مستشارة منذ خمس سنوات، وتتدرب الآن لتصبح اختصاصية في العلاج النفسي. وهي تكسب قوتها من الاستماع إلى شكاوى الناس في إحدى غرف البيت. لقد كنا محظوظين، وكان أحدنا يحسد الآخر على مهنته. فقد كانت هي تريد أن تبني من الداخل، أما أنا فكنت أريد أن أسمع من الخارج.

غادر ولدانا المنزل. إذ تدرس ابنتنا الطب، ويعمل ابننا محرّر أفلام. وأنا أعتبر أن حياتي انتهت نهاية سعيدة. وعندما كانت زوجتي مارغوت تدخل إلى الغرفة كنت أشعر برغبة في أن أحدّثها عن آرائي التي أعرف أنها ستولي بعضها شيئاً من الاهتمام. ورغم أن مارغوت تجد متعة في الزعم بأن الرجال يصبحون مغرورين ومتطلبين، وتزداد أخلاقهم سوءاً في أواخر متوسط العمر، فهي ترى كذلك أننا لا نتوقف عن التفكير بأمور اللياقة والكياسة، وننسى أن الآخرين هم أكثر أهمية من أنفسنا. ثم يزداد الأمر سوءاً.

أعترف بأنني لست ذلك الرجل الذي وصل إلى إحدى مراحل البوذية. ولعلي أتمتع ببعض الصفات والمزايا، كالعطف والشفقة واللطف في بعض الأحيان، إلا أني، وبخلاف الكثير من أصدقائي، لم أتوقف أبداً عن إبداء الاهتمام بالآخرين، أو بالثقافة والسياسة وتأثيرهما العام على البشرية. وكنت أتوق دائماً لأن أكون أباً جيداً. ورغم كراهيتهما الضرورية لي في بعض الأحيان، فإني أجد متعة في ابنينا وأحبّ صحبتهما. ويمكنني القول بأنني كنت زوجاً متسامحاً بصورة عامة. إلا أن مارغوت تدّعي بأنني أكتب حباً في الشهرة والمال ومودّة النساء. وأضيف إنني أحبّ ما أفعله أيضاً، وما يزال ذلك يبهرني ويسحرني. فمن خلال عملي أفكّر في العالم، أفكر في ما يثير اهتمامي واهتمام الآخرين.

وبالإضافة إلى تناقضاتي الكثيرة جداً ـ فأنا، كما قيل لي، ثلاثة أشخاص مختلفين على الأقل في شخص واحد ـ فأنا متردد، وأعنى بنفسي كثيراً، وحسود، وأحتاج دائماً لأن أشعر بالإطمئنان. وتقول زوجتي إني مصاب بشيء من الجنون، وتنتابني أمزجة تجعلني أضطرب، وأنكفئ داخلياً، وهي أشياء لم أكن أعرف أني مصاب بها. فمن الممكن أن أدخل إلى الحمّام لآخذ دوشاً كرجل، وأخرج منه رجلاً آخر أكثر سوءاً. إذ تتسع حدقتا عينيّ، وأروح أذرع البيت بقلق شديد، وأصرخ وأضرب قدميّ بالأرض. وتكفي بضع كلمات من النقد لأن تجعلني أحمل ضغينة لثلاثة أيام متواصلة، ويتملكني دائماً شعور بأن زوجتي تخطط ضدي. ولم يخفّ شيء من هذا، رغم السنوات العديدة من التحليل الذاتي، والعلاج النفسي و«الكتابة كشفاء»، كما كان بعض طلابي يسمون محاولة القيام بعمل فني. لكن كلّ هذا لم يشفني من نفسي، من النفس التي كنت شديد التعلق بها. فإذا سألتني، فربما قلت إن مشاكلي هي ذاتي، وحياتي هي معضلتي. لذلك يستحسن أن أتمتع بها.

كنت سأعيد النظر في حضور هذه الحفلة، لو لم تخرج مارغوت لتناول العشاء مع مجموعة من رفيقاتها. ولو لم يتملكني شعور

بالحسد مما رأيت أنه حميمية تجمع بينهن، ورغبتهن الجامحة في الالتقاء والتحدث إلى بعضهن، وسرور الواحدة منهن بلقاء الأخرى. وبدا لي أنه لا يمكن أن يكون الرجال مباشرين مثلهن هكذا.

أما إذا بقيت في البيت وحدي الآن فسأذرع غرف البيت جيئة وذهاباً، وأحرك الأشياء من أماكنها، ثم أعيدها ثانية، ثم أبحث عنها مرة أخرى في كل مكان. ولم أعد أؤمن أو آمل بأن المعارف التي أستمدها من الكتب ستشفي غليلي، أو بل حتى تسلّيني. فإذا شاهدت التلفزيون لفترة طويلة، يبدأ شعور بالخواء ينتابني. وأبدأ أرى نفسي وقد أصبحت خارج هذا العالم، إذ لم أعد أعرف من هم نجوم الموسيقى الشعبية (البوب)، أو من هم الممثلون الجدد، أو أسماء المسلسلات التي تعرض في التلفزيون. ولم أعد متأكداً إلى أي شيء تنتمي أجساد هؤلاء الفتيان والفتيات الخلاعية. وعندما كنت أحاول أن أشارك في حديث مع أحدهم، ما كنت أستطيع أن أفهم إلا طرفاً منه. أما بالنسبة للسياسيين فلم أكن أتبين إلى أيّ جانب ينحازون. ويبدو أن عمري وثقافتي وتجربتي أصبحت عديمة الجدوى. وبدأ يخيّل إليّ أنه لكي تشارك في العالم بفضول ومتعة، ولفهم ما يجري، يجب أن تكون شاباً وجاهلاً وغير مطّلع. فهل حقاً أريد أن أشارك؟

في هذا المساء بالذات، وبشيء من التردد والتذبذب شبه الشيخوخي المتسم بالخرف، لم يكن لديّ شيء أفضل يمكنني أن أفعله. أخذت دوشاً، وارتديت قميصاً أبيض، وفتحت الباب، وخرجت خبباً. كنا في عزّ الصيف، والشوارع لاهبة. ومع أنني أعيش في لندن منذ أن كنت طالباً، ما يزال ينتابني حتى اليوم شعور بالفرح، عندما أفتح باب البيت، لمجرد التفكير بما يمكنني أن أراه أو أسمعه، ومن يمكنني أن أصادفه وأفكر به. وأصبح يبدو لي أن لندن لم تعد جزءاً من بريطانيا ـ ففي رأيي، أضحت مكاناً ضيّقاً كئيباً مليئاً بالحقول والمحلات والبلدات الصغيرة التي تحاول أن تقلد لندن ـ بل أصبحت مدينة دولة شبه مستقلة، مثل نيويورك، وبدأت

تتقبل أهمية الشعور بالرضى والاكتفاء. ومن الناحية الأخرى كنت أناقش مارغوت بأنه يستحيل على المرء أن يصل إلى نهاية الشارع دون أن يوقفه أحد ويطلب منه بعض النقود. وكنت أبدو عادة في حالة رثة، إلى حد أن الشحاذين كانوا يفقدون الأمل وهم يمدّون أيديهم لي.

كان جلّ المدعوين إلى الحفلة التي أقامتها إحدى الصديقات، وهي مخرجة مسرحية وتدرّس في معهد التمثيل أيضاً، من العاملين في المسرح. وكان من بين الحضور عدد من طلابها في معهد التمثيل، بالإضافة إلى الأشخاص المعتادين، بعض من أصدقائي ومعارفي الذين ما يزالون على قيد الحياة، والذين ما يزالون يتمتعون بالحيوية والنشاط، وليسوا نزلاء المشافي، أو ممن يقضون إجازات صيفية. ونزولاً عند طلب طبيبي بأن أمارس الرياضة، إذ إنني كنت ما أزال أتمنى أن أتمتع بطاقة الشباب، قرّرت أن أمشي من منطقة وسط لندن إلى مكان الحفلة. وبعد زهاء خمس وأربعين دقيقة، بدأت ألهث وشعرت بالإنهاك. لم يكن هناك أثر لأي سيارة أجرة في المنطقة، وبدا لي أن جميع السبل قد تقطعت بي في شوارع متربة شبه مهجورة. وراودتني رغبة في أن أجلس في حديقة مظللة بالأشجار، لكن الشك بدأ يراودني في أن أتمكن من النهوض مرة أخرى، وخاصة أنه لا يوجد أحد يمكنه أن يمد لي يد المساعدة. وكان الكثير من الحانات التي كنت أرتادها لاحتساء كأس من البيرة المرّة، وقراءة الصحيفة المسائية، تعج بأناس متعبين، شبه مهدّمين، هاربين من أسرهم ـ مدمنو كحول كما أصبح يطلق عليهم اليوم ـ قد أصبحت الآن حانات تطفح بالشبان المفعمين بالحيوية والنشاط. ولم أكن أجرؤ على محاولة اجتياز البوّابين ذوي الأجساد الضخمة. وكانت لندن تبدو لي أحياناً مدينة تحتلها كاميرات التصوير ورجال الأمن، فلم يعد بإمكانك أن تجتاز باباً دون أن تنزع ثيابك لتفتيشك، أو تفتيش حذائك وجيوبك، وبالطبع فإن كل هذا يتم لمصلحتك، مع أنها لم تصبح أكثر أماناً أو أكثر

خطورة من قبل. ولم تكن هناك إمكانية للمشاركة في أحاديث هذه الحانات السيئة مع غرباء بائسين، تربطك بحياة الآخرين وفرادتها على نحو غريب. وبدا لي أن الشوارع قد خلت من المسنين، وامتلأت بالشبان الذين تخرج من رؤوسهم أسلاك يستمعون من خلالها إلى الموسيقى، أو ينصتون إلى الهاتف أو تمدهم بالكهرباء فتجعلهم يتحرّكون.

ومع ذلك فقد دأبت على التجوال في مدينة لندن بعد الظهر وفي المساء. وكنت أمشي مسافات طويلة بعض الشيء، أتفرج على المحلات والمسارح المعتمة والمتاحف الغريبة، وإلا فلن يعود جسدي قادراً على الحركة بعد أن أفرغ من عملي الصباحي في المكتب.

لم تقم الحفلة في شقّة صديقتي، بل في بيت أخيها الثري، واحد من تلك البيوت الواسعة المطلية بالجص، والمؤلفة من خمسة طوابق، بالقرب من حديقة الحيوانات.

وعندما وصلت أخيراً إلى الباب، كانت قد وصلت في الوقت نفسه حفنة من الفتيان في العشرينات من أعمارهن.

«إننا ندرس مسرحياتك» قال أحدهم محدقاً فيّ، ثم أضاف: «إن مسرحياتك مقررة في منهاجنا».

«أرجو ألا أكون قد سببت لكم ازعاجاً كبيراً»، أجبت.

«كنا نتساءل إن كان بإمكانك أن تخبرنا ماذا كنت تحاول أن تفعله مع ـ».

قلت: «أتمنى أن أتذكّر، لكن للأسف».

«سمعنا أنك كنت فظاً ومتهكماً»، دمدم آخر، ثم أردف «كما أنك لا تشبه الصورة الملصقة على الغلاف الخارجي من كتبك على الإطلاق».

جاءت صديقتي صاحبة الحفلة إلى الباب. أمسكتني من ذراعي

وقادتني إلى داخل البيت. ربما خيّل لها أني كنت سأهرب. والحق أن هذه الحفلات بدأت تجعلني أشعر بالقلق، تماماً كما كنت أشعر عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري. والأسوأ أن تعرف أن هذه المخاوف، المهدّمة لذات المرء، لا تصدر من عقل المرء فقط، بل ما تزال عصية على التفسير. فعندما تبدأ تشيخ يكاد يبدو أن مصدر سلوكك المحبط للذات والمحرج هو شيء من الماضي. فلماذا تريد أن تعرف أسبابه الآن؟

«ألا تكره هؤلاء الشبان الجميلين، بغرورهم الزائف، وجملهم التي تبدأ بعبارة: *عندما تخرجت من أكسفورد، أو من الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية*»، قالت وهي تقدم لي كأساً، ثم أردفت قائلة: «لكن وجودهم ضرورة في أي حفلة جيدة، ألا توافقني على ذلك؟».

قلت: «إنهم لا يريدون أن يقترب منهم أحد منا كثيراً».

فقالت: «أوه، لا أعرف ذلك».

قادتني إلى الحديقة، حيث كان يتجمع أكثر المدعوين في حلقات. كانت الحديقة واسعة جداً، وفيها مساحات مفتوحة ومشجّرة، ولم أر حدوداً لها. وكانت أجزاء منها مضاءة بالفوانيس التي تتدلى من الأشجار. وكانت ثمة بقع أخرى معتمة على نحو جميل. وكانت هناك فرقة تعزف الجاز، والطعام يملأ الموائد، والجميع منهمك في أحاديث حيوية، والجميع يرتدون ثياباً صيفية خفيفة بقدر الإمكان.

أحضرتُ قليلاً من الطعام وكأساً من الشراب ورحت أبحث عن مكان أجلس فيه عندما اقتربت صديقتي مني ثانية.

قالت: «آدم، أرجو ألا تحدث جلبة يا عزيزي».

«ماذا؟».

كان قلبي يغوص في أضلاعي كلما سمعت أن ثمة شخصاً يريد لقائي.

«من هو؟».

تنفست الصعداء عندما تبين لي أنه شابّ يدرس في معهد التمثيل المسرحي. ممثل مبتدئ. كان يقف وراءها.

قال: «أرجو ألا تمانع في أن أجلس معك قليلاً؟» كنت أعرف أنه سيسألني عن عمل. «لاتقلق، لا أريد عملاً».

ضحكت وقلت: «لنجد مقعداً نجلس عليه».

لن أكون بخيلاً في مثل هذه الأمسية البهيجة. لماذا لا أنصت إلى ممثل؟ فقد أمضيت حياتي مع أولئك الذين يغيّرون شخصياتهم في الظلام، ويكسبون قوتهم بالتأثير الذي يحدثونه على الآخرين.

عندما رأت صديقتي أننا على ما يرام، تركتنا وحدنا.

قلت: «لا يمكنني أن أظل واقفاً لمدة طويلة».

«هل لي أن أسأل لماذا؟».

«وجع في الظهر. العمر بعبارة أخرى».

ابتسم وأشار: «هناك مكان هادئ وجميل».

تمشينا في الحديقة واقتربنا من مقعد محاط بشجيرات، يمكّننا من رؤية باقي المدعوين.

«رالف»، قال مقدماً نفسه. وضعت صحن طعامي على الأرض وتصافحنا. كان شاباً جميلاً، طويلاً ووسيماً ويتمتع بثقة في نفسه، وبدا أنه كان متواضعاً. قال: «أعرف من أنت. قبل أن نتحدث، دعني أحضر مزيداً من الشمبانيا».

سواء بتأثير رالف، أو بتأثير الطبيعة الرائعة المتلألئة التي أضفتها عليّ هذه الليلة، بدأت ألاحظ كيف كان الجميع في غاية الأناقة، وخاصة الشبان ذوو الآذان المثقوبة والوشم على أجسادهم، المتحلون بزينة براقة مثل واجهات محلات بيع المجوهرات، والذين صبغوا شعورهم بألوان متباينة. وبالإضافة

إلى رياضة الرشاقة، لا بد أن هؤلاء الشبان قد حافظوا على رشاقتهم بلَيِّ جرار وأحواض وقناني عديدة وإعادتها إلى عهدها السابق. وكانوا يرتدون ثيابهم لعرض أجسامهم، لا لعرض ثيابهم.

من بين متع أن تكون رجلاً، أن تشاهد النساء وهن يرتدين ثيابهن ويخلعنها، ويضعن طلاء الأظافر ويزلنه. أما عندما يتعلق الأمر بأجسادهن، فهن يعتقدن أنهن يرتدين ما بداخلهن إلى الخارج. لكن لم تكن تروق لي على الإطلاق فكرة أن يحتفظ الرجل بأناقته، وأن يتنقل من محل إلى آخر، وأن يكون قادراً على إصدار حكم مسبق، أو النقد، أو أن يقوم بغسل وجهه بالماء، وأن يتقدم بدون مهابة إلى ما يمكن أن يجده عند طرف السرير، ثم يخرج إلى الشارع.

عندما عاد رالف كنت منهمكاً في تناول طعامي والتطلع حولي. أخذ يمتدح عملي بحماس، والأهم من كل ذلك، تبين لي أنه على اطلاع واسع على أعمالي، بل وعلى أكثر جوانب أعمالي غموضاً. فقد شاهد الأفلام التي كتبتها والكثير من المسرحيات التي أنتجتها. كما قرأ مقالاتي، ومراجعاتي ومذكراتي التي نُشرت مؤخرا بعنوان «*متأخر كثيراً*». (كم كانت تلك الإضافات والإسقاطات النهائية البائسة رديئة، كما لو كنت أكتب وصية طويلة ومملة، ولم يكن بالوسع عمل شيء حيال ذلك، ولم يكن بإمكانك إلا أن تقلّبها على وجوهها بأمل أن تجد فيها وجهة نظر إيجابية أكثر). كان على اطلاع جيد على أعمالي، وبدا لي أن هذا كان يعني له الشيء الكثير. فقد يكون المديح محنة، وقد صمدت في وجهها.

كنت على وشك أن أبذل جهداً وأنهض لأحضر مزيداً من الطعام عندما أتى رالف على ذكر ممثل كان قد أدى دوراً صغيراً في إحدى مسرحيّاتي في مطلع السبعينات، ومات بسرطان الدم بعد ذلك بفترة وجيزة.

قال «كان ممثلاً رائعاً»، وأضاف «لقد أصبنا بالاكتئاب جميعنا آنذاك».

قلت: «كان صديقاً طيباً، لكنك لا تتذكّر أداءه».

«بلى، أتذكر».

«كم كان عمرك آنذاك، أربع سنوات؟».

«كنت أجلس في المقاعد الأمامية في المسرح. كنت دائماً أحصل على أفضل المقاعد».

تمعنت في وجهه بقدر ما أمكنني في الضوء المتاح. لم يكن ثمة شك بأنه كان في أوائل العشرينات من عمره.

«لا بد أنك مخطئ»، قلت، «هل هذا ما سمعته؟ كنت أمضي وقتي مع أحد الأصدقاء، شخص أعتبره أفضل مخرج في بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. أين أعماله الآن؟ لا يمكن أن يكون هناك سجل بالمشاعر إزاء مشاهدة مسرحية معيّنة. حتى أن فيلماً عنه لن يعطي أي فكرة عن أجواء العمل وحجمه والشعور الذي كان سائداً». ثم أضفت «تذكّر أن الكثير من المخرجين يعترفون بأنّ ذلك رحمة».

لكنه قاطعني قائلاً: «كنت هناك، ولم أكن طفلاً. آدم، هل لديك مزيد من الوقت تمضيه معي؟».

تطلعت حولي، وتعرفت على وجوه عديدة مألوفة، كان بعضها مليئاً بالتجاعيد مثل عضو ذكري هرم. وكنت قد عملت وتجادلت مع بعض هؤلاء منذ أكثر من ثلاثين عاماً. أما في هذه الأيام فقد أصبحت لقاءاتنا عندما نجتمع، تبادلاً إنسانياً أقل حماساً من نداء الشيخوخة. ولم يُضف أحد إلى أعمالنا، وإن فعل فلم نكن نحظى بالثناء الكافي. كان هذا الشعور بالمرارة، الذي هو أكثر مما كنا نستحق، يشعرنا بالوهن والإحباط. أو كنا نتحدث عن الأحفاد والمستشفيات والجنائز والصلوات التأبينية، ونقول كم افتقدنا كذا وكذا، وكنا نتساءل طوال الوقت، دور من التالي، متى سيأتي دورنا.

قلت: «حسناً، وفيم العجلة؟ فقد أصبحت أظن مؤخراً أن المرء يبدأ يرغب في الإيواء إلى الفراش دائماً بعد عمر معين. إلا أنه مما

يفرج عن النفس أن ذلك يتم بنجاح. إذ بإمكاني أن أنام ملتحفاً بالبطانية الكهربائية، وأنصت إلى موسيقى الأوبرا، وأقرأ على نحو سيئ. ياله من ترف أن تقرأ بشكل سيء، أو أن تفعل شيئاً إزاء ذلك».

كانت هناك صبيتان تقفان في ركن بعيد، كان بوسعهما رؤيتنا، وكانتا بين الحين والآخر تلتفتان وتنظران إلينا وتضحكان. كنت أعرف أن وجهي لم يكن جذاباً لهما.

مال نحوي وقال: «حان الوقت لأشرح لك. لنقل... إنه كان يوجد ذات يوم شاب، وكانت تتملكه مشاعر هاملت. وكان عقله مشوشاً ومضطرباً، وقد هدمه والداه. لكنه شق طريقه وأصبح ناجحاً، وأعني بذلك أنه تمكن من جمع قدر من المال، بعد أن أنشأ عملاً ضرورياً، لكنه تافه، مثل تصنيع لفافات ورق التواليت، أو نوع جديد من الحساء المعلّب. ثم تزوّج، وأنجب أطفالاً ورباهم حتى كبروا.

«وفي منتصف عمره، كما يحدث في بعض الأحيان، شعر أن بوسعه الوقوع في الحبّ أخيراً. وفي حالته كان حبه المسرح. اشترى شقّة في وسط لندن ليتمكّن من الذهاب إلى المسرح سيراً على الأقدام كلّ ليلة. وفعل ذلك لسنوات عديدة، لكن خيّل إليه أنه كان يحبّ كل شيء يلمع، المقاعد الفاخرة، الآيس كريم، الأحاديث التي تدور بعد العرض في مطاعم غالية، لكنه لم يكن يشعر بالرضى. بدأ يدرك أنه يريد أن يصبح ممثلاً، أن يقف أمام حشد كبير من الناس كلّ ليلة. فما هو السبيل لتحقيق رغباته؟

«لكنه كان قد طعن في السن. لعله لم يعد بإمكانه أن يدرس في معهد التمثيل، دون أن يبدو مضحكاً. كان مقدّراً له أن يكون أحد أولئك الأشخاص العاثري الحظ الذين أدركوا في وقت متأخر جداً الشيء الذي يريدون أن يفعلوه. وكما تعلم فإن العمل المهني هو العمود الفقري للحياة.

وتابع قائلاً «وفي الوقت نفسه، حدث شيء فظيع. فقد بدأت زوجته، التي كان يحبها حباً جماً، تعاني من مرض يؤدي إلى

تدهور الجسم مما أتلف جسدها، أما عقلها فقد بقي سليماً. وكما شرحت لك، كانت أشبه بسائق يتمتع بصحة جيدة يقود سيارة لا تستجيب جيداً، وهي آخذة في التدهور وستتحطّم وتقتلها. قالت إن كلّ ما تحتاج إليه هو جسد جديد. بذلوا محاولات كثيرة لمعالجتها في بلدان مختلفة، لكنها بدأت تتمنى الموت في النهاية. وفي حقيقة الأمر طلبت من زوجها أن يخلصّها من حياتها، لكنه لم يفعل ذلك. إلا أنه كان يدرس الأمر جيداً عندما أنقذته من المشكلة».

قلت: «آسف، لم أفهم قصدك؟».

«في هذه الأيام، قد يكون الموت كابوساً. إذ يواصل الناس الحياة لسنوات طويلة، بعد أن لا يعود ثمة شيء يتحدثون عنه».

ثم واصل كلامه قائلاً: «أما الرجل الذي أحاط زوجته بالرعاية مدة عشر سنوات، فقد تقاعد وذهب في رحلة استجمام. لكنه شعر أنه لن يعيش طويلاً. فقد استُنزفت قواه، وأصبح هرماً وعنيناً، وبدأ يستعد للموت أيضاً».

«وفي أحد الأيام، عندما كان في أمريكا الجنوبية، حيث يعرف أشخاصاً أغنياء آخرين، لكنهم كانوا أناساً كئيبين وحزينين، سمع قصّة خيالية من شابّ كان يثق به، طبيب كان يهتمّ مثله بالمسرح وبالثقافة. ووضعا معاً ـ هلّ تتخيّل ذلك؟ ـ مسرحية للهواة بعنوان «اللعبة الأخيرة». وقد تأثر هذا الطبيب بالأمنية القديمة في تحقيق المستحيل. وقد أفضى له بسر، وقال له إن شيئاً مدهشاً يجري الآن. إذ كانت تؤخذ أدمغة بعض الرجال والنساء المسنين الأغنياء حيّة وتُزرع في أجساد شبان كانوا قد ماتوا مؤخراً».

هنا صمت رالف، كما لو كان يريد أن يرى ردة فعلي قبل أن يواصل كلامه.

قلت: «يبدو أنه من المنطقي أن تواكب المخيّلة أو الإرادة البشرية التكنولوجيا والتقدم الطبي. فأنا لا أعرف شيئاً عن العلم، لكن أليست تلك هي الوسيلة عادةً؟».

وتابع رالف كلامه: «قد لا يعيش هؤلاء الناس إلى الأبد، لكنهم يعودون شباباً مرة أخرى. قد يعودون إلى العشرين من العمر إذا أرادوا. يمكنهم أن يعيشوا الحياة التي يظنون أنها فاتتهم. يمكنهم أن يفعلوا ما يحلم به كلّ إنسان، بأن تتاح لهم فرصة ثانية».

دمدمت: «بعد قليل ستدرك أنه لا توجد سوى سلعة ثمينة واحدة. وهي ليست الذهب أو الحبّ، بل الزمن».

«من منا لم يسأل: لماذا لا أكون شخصاً آخر؟ من لا يريد حقاً أن يعيش مرة أخرى، لو أتيحت له الفرصة؟».

قلت: «لست مقتنعاً بذلك»، ثم أردفت: «أرجو أن تواصل حديثك. هل هناك أشخاص تعرفهم فعلوا ذلك؟».

«نعم».

«وكيف كانت أشكالهم؟».

«اتخذ قرارك. انظر إليّ جيداً». ومال نحو الضوء لكي أراه جيداً. إلمسني إذا أردت».

«حسناً»، قلت ولمست خدّه. كان ملمسه كملمس لحم أيّ شابّ آخر.

«تابع».

«لقد تابعت حياتك من البداية، بالتوازي مع حياتي. كنت أراك في المطاعم، حتى إني طلبت ذات مرة أن أحصل على توقيعك. لقد كنتَ تعبّر عن أفكاري. وكانت القطعة التي ألقيتها في اختبار مدرسة التمثيل من تأليفك أنت. آدم، أنا أكبر منك سناً».

قلت: «يصعب تصديق هذا الكلام. فأنا ما أزال أجد متعة في سماع القصص الخرافية».

واصل كلامه: «كما قلت لك، فقد جمعت الكثير من المال، لكن وقتي كان قد بدأ ينفد. إنك تعرف أكثر مني، ممثل يدخل إلى الغرفة

وتراه فجأة ـ هذا كلّ ما تراه ـ كبيراً جداً على هذا الدور. رغم أن معين المرء من الرغبة لا ينضب مع العمر، بل يزداد بالنسبة للكثيرين، لكن السبل لتحقيقها تضعف. فأنا لا أريد بطناً مشدودة، وشعراً ممشطاً، أو عينين أقل تهدلاً، أو أياً من تلك... التعديلات التافهة». وهنا ضحك. كانت المرّة الأولى التي بدا فيها جدياً. «كلّ ما كنت أريده عشرين سنة أخرى، على الأقل، من الصحة والشباب. لقد أجريت العملية».

«هل أزالوا دماغك... لتصبح أكثر شباباً؟».

«إن ما أقوله يبدو ضرباً من الجنون، شيئاً لا يصدق».

«من أجل هذا الخيال الممتع، لنفترض أن ما تقوله صحيح. كيف تسير الأمور؟».

قال إن العملية كانت بحد ذاتها مرعبة، لكنها لم تكن من الناحية الجسدية أسوأ من جراحة القلب المفتوح التي كنا قد أجريناها نحن الاثنين. وفي حالتنا هذه فإنك تشعر باللياقة والتفاؤل عندما تصحو من المخدّر. تكون «مستعداً لأن تقفز وتجري» حسب تعبيره. علماً أن العملية لم تصبح شائعة ومعروفة بعد. ولا توجد إلا حفنة من الجراحين الذين يمكنهم أن يقوموا بهذا النوع من العمليات. وقد أُجريتْ مئات المرات، بل ربما ألف عملية، إذ لا يمكن معرفة الرقم بدقة، خلال السنوات الخمس الماضية. لكنها ما تزال، حسب علمه، سراً. وقد آن الآوان لأن يجريها منذ بدايتها، قبل أن يشتد الطلب عليها. ومن مصلحة الجميع كتمان السرّ.

وقال إنه يرى من المهمّ أن يعيش بعض الأشخاص فترة أطول على هذه الأرض، لأن في بقائهم فائدة هائلة للبشرية. وهنا أجبته بأنني معجب بخفة دمه رغم أنني لم أكن أعرفه. فلم يبد أنه كان من ذلك النوع الذي يقود جنساً متفوقاً من البشرية. إذ لم يكن ستالين، أو بول بوت، بل ولم يكن حتى الأم تيريزا كي يعود خمسين سنة أخرى إلى الوراء.

فقال: «هذا صحيح»، وأضاف «ومن نافلة القول إني لا أعتبر نفسي واحداً من هؤلاء. لكن كان عندي أطفال، وكنت مجدّاً في عملي. وأشعر أني بحاجة إلى حياة أخرى لأعوض ما فاتني».

سألته: «لو كنت حقاً واحداً من هؤلاء النساء أو الرجال، فماذا تريد أن تفعل بوقتك الجديد؟».

قال: «كلّ ما كنت أطمح إليه منذ سنوات كثيرة هو أن أمثّل دور هاملت. لا كرجل بلغ السبعين من عمره، بل كشاب. وهذا ما سأفعله»، ثم أردف: «لقد وزعوا الأدوار على الممثلين في مدرسة التمثيل، وحصلت على الدور. لقد حفظت هذا الدور منذ سنوات. وكنت أسير في مصانعي المختلفة، وأردد الأبيات كي أحافظ على قواي العقلية».

«أرجو أن تعذرني لقول هذا، لكن ما الضير من تمثيل الملك لير أو بروسبيرو؟».

«سأبلغ تلك القمة في النهاية. آدم، أصبح بإمكاني أن أفعل أيّ شيء الآن، أيّ شيء!»

قلت: «هل هذا ما تنوي عمله بعد أن أن تؤدي دور هاملت؟».

«سأواصل عملي كممثل، الشيء الذي طالما أحببته. آدم، لديّ المال والخبرة والصحة وبعض الذكاء. ولديّ الأصدقاء الذين أريدهم. إذ يملأ الشباب في المدرسة الحماس والنشاط. شيء كنتَ أنت قد كتبته أثّر فيّ بالغ الأثر. فقد قلت إن المسرحيات، بخلاف الأفلام، لا تحدث في الماضي. فخوف الممثلين وقلقهم ومهارتهم تحدث الآن، أمامك. وإذا كان الأداء محفوفاً بالمخاطر فإننا نتماهى مع إمكانية العظمة والكارثة. إني أريد ذلك. بوسعي أن أقول لك إن ما حدث لي هو إبداع في تاريخ البشرية. ما رأيك بأن تنضم إليّ؟».

ضحكت وقلت: «أنا لست قديساً، بل مجرد كاتب ركيك العبارة، أهتم أحياناً بالطريقة التي يستغل فيها الناس بعضهم البعض. ولا

أشعر بأني مؤهل لأن آخذ نصيبي من حياة ثانية لأني أنتمي إلى طبقة النبلاء».

قال: «إنك مبدع ومشاكس ومتحدث لبق، وفي رأيي، فقد بدأت تصبح فناناً».

«بحق المسيح، أحسب أني قلت كلّ ما لديّ».

«أنت تستحقّ أن تتطور. لنلتقي في صباح الغد». وحين رفع صحنه وكأسه عن الأرض، بدأت المرأتان اللتان كانتا تنظران إلينا، ولم ينفد صبرهما، تصفقان. «سنواصل الحديث في ما بعد».

لمسني من ذراعي، وحدد مكاناً ونهض.

قلت: «وفيم العجلة؟ ألا يمكننا أن نلتقي بعد بضعة أيام؟».

فقال: «هناك الجانب الأمني. لكني أظن أن أفضل القرارات هي التي تتخذ على الفور».

قلت: «وأنا أؤمن بذلك أيضاً، لكني لا أعرف شيئاً عن هذا».

فقال: «احلم بها. لقد سمعت ما يكفي هذه الليلة. سيصعب على أي إنسان آخر أن يستوعب هذا الأمر بسرعة. سأراك غداً. لقد تأخر الوقت. أريد حقاً أن أرقص. يمكنني أن أرقص طوال الليل، بدون تناول منشطات».

ضغط على يدي، ونظر في عينيّ كما لو أن تفاهماً قد تم بيننا وانصرف.

انقطع الحديث فجأة، لكن ليس بشكل مفاجئ. لعله قال كلّ ما يمكن أن يقال الآن. وبالطبع، فقد تركني وأنا أرغب في معرفة المزيد. ألم أفكر كثيراً، مثل الآخرين، كيف كنت سأعيش لو عرفت كلّ ما أعرفه الآن؟ لكن أليست فكرة سخيفة؟ إذا كان ثمة شيء يجعل الحياة والإحساس ممكناً، فهو إن الإنسان عابر.

رأيت رالف ينضم إلى مجموعة من طلاب معهد التمثيل، «أبناء

جيله». فمن المفترض أنهم مثله، لا يفكرون بموتهم كلّ يوم، لا مثلي أنا.

نهضت وتحدثت قليلاً إلى أصدقائي ـ المسنين ذوي العيون الدامعة. كان بعضهم منكمشاً كثيراً، وكانوا قد أنجزوا أفضل أعمالهم منذ مدة طويلة ـ أكملت شرابي وودعت المضيفة.

عندما نظرت إلى الوراء عند الباب، رأيت رالف يرقص مع مجموعة من الشبان كانت بينهم الفتاتان اللتان كانتا تراقباننا. وفي طريقي إلى الباب رأيت الفتية الذين التقيت بهم عند الباب الخارجي، جالسين إلى مائدة طويلة يحتسون الشراب، ويداعب أحدهم شعر الآخر. وكنت على ثقة بأني سمعت أحدهم يقول إنهم يفضلون الكتاب على الفيلم السينمائي، أم أنه قال إنهم يفضلون الفيلم على الكتاب؟ وفجأة بدأت أتوق إلى عالم جديد، عالم لا يقارن فيه أحد بين الكتاب والفيلم، أو العكس، إلى الأبد.

ولكي تتاح لي فرصة للتفكير مشيت إلى البيت، لكني لم أشعر بالتعب هذه المرة. وفي طريقي رأيت مجموعات من الشباب والفتيات يتسكعون في الشوارع. الفتيان في معاطف طويلة وقلنسوات أخفت معظم وجوههم، مما ذكّرني بشخصيات فيلم *الختم السابع*، وتذكرت كذلك وفاة أعزّ أصدقائي المؤلمة منذ شهرين.

قال: «لن يكون الأمر ذاته بدوني». فقد تعرف أحدنا إلى الآخر في الجامعة. كان مدمناً سيئاً على الخمر، وقد هدم نفسه. «انظر إلى حياتك، وإلى كلّ ما أنجزته. أما أنا فقد أهدرت حياتي».

«لا أعرف ما معنى كلمة أهدرت».

فقال: «أوه، ها إني أعرف معناها الآن»، ثم أضاف: «إنها عدم قدرة المرء على أن يمتّع نفسه أو الآخرين. إلى اللقاء!».

بدأت قطع شطرنج حياتي تُزال، الواحدة تلو الأخرى. لقد

باغتتني وفاة صديقي. كنت أعتقد أنه لن يتخلّى عن معاناته. وقد بدأت حياتي تقترب من نهايتها أيضاً، وما تزال هناك أشياء كثيرة لم أكن قادراً على القيام بها، وسيكون هناك المزيد منها في وقت قريب. إني أعيش منذ فترة طويلة، إلا أن حياتي، مثل أكثر الحيوات، بدا أنها جرت بسرعة كبيرة، في الوقت الذي لم أكن مستعداً لها.

لقد ذكرني صياح الفتيان في الشارع، ومفردات حركات أرادفهم المبهمة، ووجودهم المهدِّد كيف أن حاجات الشباب تثير فزع المسنين. ولعله من المثير للاهتمام أن يعرف المرء حقيقة ما يشعرون به. وإني على ثقة بأنهم على استعداد للتحدث عن مشاعرهم، إلا أنه لم تتح لي حتى الآن إمكانية التعرف على حقيقة مشاعرهم.

عندما وصلت إلى البيت رحت أنظر إلى نفسي في المرآة. قالت مارغوت إني ببطني المكوّرة، وساقيّ النحيلتين المليئتين بالعروق، وميلي نحو اليسار، بدأت أشبه أبي قبل وفاته بفترة قصيرة. هل يهم ذلك؟ ماذا سيجلب لي جسدٌ أكثر شباباً؟ مزيداً من الحب؟ مع أني أعرف أن ذلك لم يكن ما أسعى إليه بقدر ما كنت أسعى إلى أن أكون قادراً على شيء أكثر من الحبّ.

انتظرت زوجتي، رحت أراقبها وهي تخلع ثيابها، ونفّذت تعليماتها المتعلقة بالجلوس في الحمّام وهي تستحم على ضوء الشمعة، أستمع إلى ما جرى لها من أحداث أثناء النهار ــ وخاصة الأشياء التي أزعجتها كثيراً ــ وكنا كذلك نحبّ أن نناقش ولعنا بالشوكولاته وجسدينا: أي جزء من جسدينا، مثلاً، بدا مليئاً بالآيس كريم، وآخذاً في التوسع. نتحدث عن مختلف الحميات وأنواع الرياضات المحتملة التي تناسبنا. وكان يحلو لها أن تتهمني بأن جلدي لم يكن «مشدوداً»، وبأني في الواقع «مفرط في الرقة»، لكنها كانت تهددني بالقتل والانتحار إن أنا أتيت على ذكر أيّ جزء من جسدها بطريقة لا تنم عن احترام. وفيما رحت أجيل النظر فيها وشعرها مرفوع إلى الأعلى، وهي ترتدي ثوب نومها، وتتفحص

وجهها في المرآة وتنظفه، رحت أتساءل كم ليلة بقي أمامنا نمضيها معاً.

وما أن كنا نأوي إلى الفراش، حتى كانت تغط في سبات عميق. كنت أشعر بالاستياء من قدرتها على النوم بسرعة، مع أن النوم أصبح يبدو لي كأنه ترف وشيء كمالي، ولم يتحسن وضعي إزاءه. وأظن أن الأطفال والكبار يخافون من فقدان وعيهم، كما لو أنه لن يعود ثانية على الإطلاق. ولو سألني أحدهم لأجبت أن الوعي هو الشيء الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر في الحياة. لكن أيوجد أحد لا يحتاج إلى قسط من الراحة بين الفينة والأخرى؟

كان الاضطجاع بجانب مارغوت، والدردشة والنوم أشياء استثنائية في كلّ ليلة. فلكي يكون زواجك جيداً يجب أن تكون مولعاً بالتعقيدات الحميمية والتغير اليرقاني: أن تصبح مهتماً، مثلاً، بالأشخاص الذين يحلمون معاً. وإذا كانت الشخصية شبكة عنكبوتية فعليك أن تعرف كلّ خيط من خيوطها. وإلا فلن يغدو أمامك، بعد أن تتجاوز الأربعين من عمرك، عندما يبدأ اللون يتلاشى تدريجياً من العالم، سوى التقاعد أو إعادة الاختراع. ولا تعود المتع والمسرات تأتي إليك، بل يتعين عليك أن تلتقط الفتات من هنا وهناك، هذا إذا عرفت كيف تجمعها وتقتات عليها.

في وقت متأخر، وعلى نحو غير إعتيادي ـ لم يحدث منذ فترة طويلة ـ أيقظتني لأمارس الجنس معها، وهذا ما فعلته بسعادة، وقلت لها إني طالما أحببتها، ورحنا نتذكر كما كنا نفعل غالباً، كيف التقينا معاً. كانت تلك هي قصصنا الأثيرة، دائماً ذاتها ومختلفة بعض الشيء أيضاً، وكنت أنصت إليها لأحظى بإحساس أو جانب جديد أو مثير منها.

لم يداعب النوم أجفاني بقية الليل، ورحت أذرع جنبات البيت متسائلاً.

2

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى المكان الذي اقترحه رالف للقائنا. حسبت أنه لن يأتي، وربما كنت أتمنى ذلك. ورحت أقلّب الأمر على وجوهه، وتبين لي كم كانت حياتي اليومية رتيبة ومملة، وانتابني شعور بالإثارة للإقدام على هذه المغامرة، وبدأ يعتريني شعور بالخوف من المستقبل المحتمل.

جاء راكباً دراجة عادية. كان يرتدي ثياباً خفيفة. قال إنه سهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ولم يتوقف عن الرقص، وإنه استيقظ مبكراً، ومارس رياضته وقرأ «نصاً مسرحياً» قبل أن يأتي لرؤيتي. وقال إن الأشخاص الذين يعيشون حياة ثانية، كالأشخاص الذين يتزوجون للمرة الثانية، يأخذون ما يقومون به عادة على محمل الجد على نحو أكبر مما كانوا يفعلونه من قبل. إذ يبدو لهم أن كلّ لحظة هي أثمن من اللحظة التي سبقتها. ومما لا ريب فيه أنه كان موفور الصحة، ويتمتع بلياقة جسدية رائعة، وكان على استعداد لإظهار اهتمام كبير بالأشياء.

ألفيت نفسي أتمعن في وجهه. كيف يمكنني أن أوضح ذلك؟ فإذا كان الجسد صورة عن العقل، فإن جسده أشبه بخريطة مكان لا وجود له. وكنت أتمنى أن أرى وجهه الأصلي، وجهه قبل ولادته الجديدة. وبدا الأمر كأنك تحدّث شخصاً على الهاتف لم تلتق به من قبل، وتحاول أن تخمن شكله الحقيقي.

لكن لقاءنا في هذا المكان كان من أجلي أنا، لا من أجله هو، وبدا في غاية الجدية، وبدأت أشعر أنه لا بد كان هكذا في حياته السابقة. وشرح لي كل شيء كما لو كان يقرأ من لوح مسجل في دماغه. وبعد ساعتين تصافحنا، وعدت إلى البيت.

جرت العادة على أن نتشاجر أنا ومارغوت ونتجادل على مائدة الغداء المؤلف عادة من حساء وخبز، أو سلطة وبعض السندويتشات، قبل أن نأخذ قيلولتنا على أرائك منفصلة. وكان يتعين عليّ أن أخبرها اليوم أني على وشك أن أسافر.

كانت مارغوت قد سافرت إلى أستراليا حيث أمضت شهرين في وقت سابق من هذه السنة وكان الهدف من رحلتها زيارة بعض الأصدقاء والمتعة في آن معاً. كان أحدنا بحاجة إلى الآخر، إلا أننا لم نكن نرغب في أن نحوّل زواجنا إلى منطقة محكمة الانغلاق. وكنا قد اتفقنا على أنه يمكنني أنا أيضاً، أن أذهب في «رحلة»، إن أردت. (من الواضح أن بعض السكان الأصليين يطلقون على «الرحلة» اسم «الحلم»). قلت لها إني سأغادر بعد ثلاثة أيام، وطلبت منها أن تمنحني إجازة مدتها «ستة أشهر». وفضلاً عن انزعاجها من قراري المفاجئ، أحست بالصدمة والألم لطول الفترة التي سأبتعد فيها عنها. كنا نشعر دائماً، أنا وهي، بالسعادة عندما نفترق، إلا أنه ما كانت تمضي بضعة أيام على فراقنا، حتى كان أحدنا يحس بالحاجة إلى الآخر ليبث له شجونه وهمومه وهواجسه. خيّل لي أن زواجنا ما يزال حياً بهذه الطريقة. وكانت مارغوت تعرف أني إذا قررت، دخلت في نفق التصميم، كي لا أتردد، الأمر الذي لم يكن مستبعداً على الإطلاق.

قالت: «كيف سيغمض لي جفن وأنت لست معي لا تحدثني عن نفسك في السرير؟».

«هذا يعني أنه ما تزال توجد فائدة من وجودي».

أذعنت لأنها كانت طيبة القلب. لم تصدق أني سأبتعد عنها ستة

أشهر. إذ لن تمضي بضعة أسابيع حتى يعتريني الملل والتعب. فمن سيهتم بي وبأمراضي كما تفعل هي؟

استغرقت وقتاً أقل مما كنت أتمنى في تسوية أموري قبل الرحلة. فقد كانت لي مجموعة من الأصدقاء الذكور ممن كانوا يأتون لزيارتي في البيت مرة كلّ أسبوعين نحتسي خلالها الشراب ونشاهد مباراة لكرة القدم على التلفزيون، ونناقش مشاكلنا وتعاسات عملنا. أخبرتهم مارغوت بأني سأذهب في رحلة، وأننا سنعود ونلتقي بعد أن أعود. اتخذت جميع الترتيبات المالية اللازمة عن طريق محاميّ، وأجريت التحضيرات الأخرى التي أصرّ رالف على القيام بها.

عندما التقينا أنا ورالف ثانية، رمقني بنظرة وقال: «أنا سعيد بأنك أول شخص أتمكن من إقناعه. إنك تعيش حياتك وتحاول أن تكتشف كيف تعاش الحياة، ثم تنتهي. لا أظن أنه بوسعي أن أجد شخصاً أفضل منك».

«أول شخص؟».

«كنت أنتظر الشخص المناسب ليحذو حذوي في هذا الأمر، شخصاً معروفاً مثلك!»

«يجب أن أرى ما سيجلبه ذلك عليّ»، دمدمت لنفسي.

قال: «لا بد أن وجهك جلب لك الشيء الكثير»، ثم أردف «ألم ترى الفتاتين اللتين لم ترفعا عينيهما عنك في الحفلة؟ لقد سألتاني بعد أن غادرت إن كنت حقاً أنت».

«صحيح؟».

«هل أنت جاهز الآن؟».

سار نحو سيارته. تبعته. كان رالف لطيفاً وشديد التفاؤل، فشعرت بالارتياح كما يشعر أي شخص آخر في مثل هذه الظروف. ثم بدأت أتطلع إلى «التغيير»، ورحت أتخيّل كل ما سأتمكن من عمله عندما أكتسي جلدي الجديد.

وصلنا إلى المستشفى. مستودع خرب في منطقة صناعية كئيبة تذروها الرياح خارج مدينة لندن (فقد أوضح لي أن الأشياء لن تكون كما تبدو في الظاهر). لاحظت من حجم السياج، وعدد الرجال الذين يرتدون بدلات سوداء بأن الأمن محكم في هذا المكان. أبرزنا أنا ورالف جوازات سفرنا عند الباب، وفتشونا بدقة.

كان المكان في الداخل أشبه بمستشفى صغير خاص غالٍ. وكانت الجدران والأرائك والصور ملوّنة بألوان خفيفة، وبدا أن السكون يخيم على المبنى، كما لو أن جدرانه من الذاكرة. لم تكن ترى مرضى يتنقلون في الممرات، ولا زوّاراً يحملون باقات زهور وكتباً وفواكه، بل كنت ترى بين الحين والآخر طبيباً وممرضة. وعندما لمحت في الطرف الآخر من الممر إمرأة عجوزاً ذاوية في ثوب نوم وردي من الفانيلا تجلس في كرسي للمعوّقين ويدفعها رجل مسنّ، اقتادونا أنا ورالف بسرعة إلى مكتب جانبي.

على الفور دخل الجرّاح إلى الغرفة. كان رجلاً في منتصف الثلاثينات، بدا هادئاً وديعاً إلى حد أني تساءلت ما نوع رياضة اليوغا التي يمارسها، أو العلاج الذي يتبعه ومنذ متى.

أكد لنا مساعده أنه تم إعداد الأوراق المطلوبة بسرعة، وكتبت له شيكاً بمبلغ كبير. كان من المفترض أن تذهب هذه النقود إلى ولديّ. فرجوت أن يجعلهما الشح وقلة المال مبدعين، مع أنهما يستطيعان الاعتماد على نفسيهما. لذلك لماذا يفترض بي أن أشغل بالي بهذا الأمر؟ فقد كان يراودني الشك بأن هذه لم تكن سوى عملية نصب واحتيال خُدعت فيها في أكثر الجوانب ضعفاً في شخصيتي وهي كبريائي وخوفي من المرض والموت. لكن إذا كان الأمر ينطوي على خدعة، فقد كانت خدعة محبوكة جيداً، وكنت مستعداً لأن أتخلّى عن المال لأسمع عنها.

قال الجرّاح: «يسرنا أن ينضم إلينا فنان رفيع مثلك».

«شكراً».

«هل كتبت شيئاً ربما لم أسمع عنه؟».

«أشكّ في ذلك».

«أظن أن زوجتي شاهدت إحدى مسرحياتك. إنها تحبّ الكوميديا ولديها متسع من الوقت الآن لتستمتع بها. أخبرني رالف أنك تريد أن تستأجر مبدئياً جسداً لفترة قصيرة؟ وكما تعرف فإن الحد الأدنى هو ستة أشهر ـ هل هذا صحيح؟».

قلت: «صحيح. سأكون سعيداً بعودتي إلى نفسي مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر».

«لا بد أن أحذرك، إذ لا يرغب جميع الأشخاص في العودة إلى ذاتهم الأولى».

«أما أنا فأريد أن أعود. لقد سحرتني هذه التجربة وأريد أن أشارك فيها، لكني لست من أولئك الأشخاص غير السعيدين في حياتهم».

«وقد لا تكون سعيداً لموتك».

«ليس بالضرورة».

فقال محتجاً: «لن تكتشف ذلك حتى تصبح على فراش الموت. فكما تعرف إن البعض يفقدون حينئذ القدرة على الكلام. أو يكون قد فات الأوان لجميع الأسباب الأخرى».

«هل تريد أن تقول إني لن أرغب في العودة إلى نفسي؟».

«يتعذر على أيّ منا أن يتنبأ كيف سيكون شعورك بعد ستة أشهر».

أومأت موافقاً.

لاحظ أني كنت أنظر إليه. «إنك تتساءل إن كنت ـ».

«طبعاً».

«نعم»، أجاب، ونظر إلى رالف. «نحن الاثنان نكتسي جسدين جديدين».

«والأشخاص العاديون الذين يسيرون إلى أعمالهم هناك»، ثم أشرت إلى أحد الأماكن «هل نسوا أجسادهم القديمة؟».

«ربما. نعم. لم لا».

«هل تظن أن هذه الكلمات ستكون في نهاية الأمر جزءاً من أكثر مفردات الناس اليومية؟».

فقال: «أظن أن الكلمات هي ما تعيشه أنت، أما الأجساد فاترك أمرها لي».

«ستُحدث الأجساد الجديدة، كما تدعوها، اضطراباً كبيراً، أليس كذلك؟ فكيف سنعرف من هو الجديد ومن هو القديم؟»

«سنناقش هذا الأمر في ما بعد» قال، وأضاف: «تماماً كما يدور النقاش حول الإجهاض والهندسة الوراثية والاستنساخ وزرع الأعضاء، أو أيّ تقدّم طبي آخر، فإن نقاشاً سيدور حول هذا الموضوع أيضاً».

قلت: «من المؤكد أن هذا الأمر سيكون مختلفاً»، وأضفت: «عندها ستجد الآباء في أعمار أبنائهم، بل حتى أصغر منهم مثلاً. ماذا سيعني هذا؟».

«هذا الأمر متروك للفلاسفة ورجال الدين والشعراء وخبراء التلفزيون لكي يبتوا فيه. إن عملي ينحصر في تمديد الحياة فقط».

«بما أنك رجل مثقف، فلا بد أنك فكرت في الأمر جيداً».

«كيف يمكنني أن أقدّر الآثار الناجمة عنها وحدي؟ يمكنها أن تعاش فقط».

«لكن».

«لقد فكّرنا بالأمر جيداً وتبين لنا، حتى أنا، أننا نحاول أن نكسب الوقت».

«كنت أفكّر...» قال رالف مبتسماً، وأضاف: «لو كنت قد متّ منذ زمن لما دار بيننا هذا الحديث».

قال الطبيب: «إن محاولات آدم في التلاعب والمراوغة ضرورية»، واستدار نحوي وقال: «يجب أن تتخذ قراراً مهماً ثانياً».

«كنت أتوقع هذا. آمل ألا يكون الأمر في غاية الصعوبة».

«اتبعني من فضلك».

أخذني الطبيب أنا ورالف يصحبنا بواب وممرضة شابة، وسرنا في ممرات ودهاليز عديدة، وولجنا عدّة أبواب مغلقة. ودخلنا أخيراً إلى غرفة أشبه بثلاجة واسعة ذات سقف واطئ، ومضاءة بأضواء النيون، ومكسوة بالسيراميك.

اعترتني رجفة عندما وقفت هناك، لا بسبب درجة الحرارة فقط. أمسكني رالف من ذراعي وهمس في أذني، لكني لم أسمع شيئاً مما قاله. فما أراه الآن لا يشبه أيّ شيء رأيته من قبل، بل لا يشبه في واقع الأمر أيّ شيء رآه أحد من قبل. لم يعد هذا ضرباً من التخمين المسلي أو الفضول. فهنا يبدأ العالم الجديد.

سألته: «ومن أين تحصلون عليها؟ أعني الأجساد».

فأجاب الطبيب: «لسوء الحظ فهم شباب متوفّون».

قلت بغباء كما لو أنني أنظر إلى مخلفات إحدى المذابح: «كلهم دفعة واحدة؟».

«طبعاً في أوقات مختلفة. ومن مناطق مختلفة من العالم. إنهم يُنقلون إلى هذا المكان بالطريقة ذاتها التي تنقل فيها الأعضاء. وهو ليس عملاً بالغ الصعوبة».

«وما الصعوبة في هذه العملية الآن؟».

«إنها تستغرق وقتاً وتتطلب خبرة كبيرة. كما أن تنظيف لوحة عظيمة واحدة يحتاج إلى وقت طويل. ويجب أن يقوم بها الشخص المناسب، علماً أنه لا يوجد الكثير من الاختصاصيين ممن يتمتعون بالخبرة حتى الآن. إلا أنه يمكن إجراء ذلك. وبالطبع سيجري ذلك باستمرار».

كانت هناك أرتال وصفوف من الأجساد المعلّقة بأحزمة: بيضاء، وسوداء ومتوسطة اللون، ومزركشة، وأجساد نقية البشرة، وأخرى مكسوة بالشعر، أو الجرداء، ومنها الملتحية، والعريضة الصدر، والطويلة، والعريضة والبدينة. ولكلّ منها رقم موضوع في محفظة بلاستيكية فوق رؤوس الأجساد، التي بدا شكل بعضها أخرق، كما لو أنها نائمة، ورؤوسها تميل قليلاً إلى أحد الجانبين، وسيقانها مدلاة ومتباعدة بزوايا مختلفة. وبدت أجساد أخرى وكأنها على وشك أن تجري. ويمكنني أن أقول مما رأيته إن جميع الأجساد كانت شابة نسبياً، فقد بدا بعضها لشباب صغار أو قل لأطفال كبار. وكان أكبرها في أوائل الأربعينات من العمر. وقد ذكرني هذا بالبدلات المصفوفة في محلات الخياطين الذين كنت أزورهم عندما كنت صبياً برفقة أبي. لكن الفرق بينها أن هذه لم تكن مغطاة بالقماش بل كانت أجساداً بشرية، ولدت حية من بين ساقيّ امرأة.

قال الجرّاح: «ابحث عما يعجبك كما تشاء؟»، وتركني مع الممرضة. «يمكنك أن تعد قائمة قصيرة بها. دوّن الأرقام التي تعجبك. عندها نستطيع أن نناقش اختياراتك. هذا هو الجزء الذي أجد فيه متعة. إنك تعرف ما أحب أن أفعله؟ إني أخّمن سلفاً الشخص الذي أتوقع أن يختاره الزبون، وأنتظر حتى أرى إن كنت محقاً أم لا. وفي معظم الأحيان أكون محقاً».

كنت أعرف ما كنت أبحث عنه. فقد كنت أعرف مثلاً أنني لا أريد أن أكون شخصاً أبيض البشرة، أو أشقر بعينين زرقاوين لأن الناس سينظرون على أنني جميل أحمق.

قال رالف: «هل يمكنني أن أقترح عليك شيئاً؟ ربما كنت ترغب في أن تعود صبية شابة، من باب التغيير».

قلت: «كانت أمي تقول إن التغيير جيد وكأنك تنال قسطاً من الراحة».

«هناك رجال يرغبون في أن يلدوا، أو يريدون أن يمارسوا الجنس كامرأة. تقول إحدى الشخصيات الذكورية في إحدى مسرحياتك إنه كان يتخيل نفسه دائماً امرأة».

«نعم... أفهم ما ترمي إليه...».

«أو يمكنك أن تختار جسداً زنجياً. هناك عدد منها»، قال بشيء من السخرية. «فكّر كم يمكنك أن تتعرف على تفاصيل أكبر عن المجتمع و... كلّ تلك الأمور».

قلت: «نعم. لكن ألا يمكنني أن أقرأ رواية عنها؟».

«مهما كان. كلّ ما أريده هو أن تعرف بأن أمامك عدة خيارات. خذ وقتك. فبإمكانك أن تختار العِرق والجنس والحجم والعمر الذي تفضله. وأظن أن الناس لا يعطون هذه الأشياء وقتاً كافياً للتفكير. إذ يخيّل لهم أن الرجال الأكثر قوة وفظاظة هم الذين يجدون متعة أكبر في الحياة. يمكنك أن تجرب جسداً آخر بعد ستة أشهر، أم أنك تريد أن تظل مرتبطاً بهويتك؟».

«لم يخطر ببالي مطلقاً أني سأفعل ذلك في يوم من الأيام».

قال: «يتعلّم المرء أن الهوية جيدة لبعض الأمور، لكن لا لأشياء أخرى».

«يا إلهي. شكراً».

أخذت الحقيبة إذ أنني لم أكن مريضاً. كنت أريد أن أخرج من تلك الغرفة. كانت أسوأ من مستودع للجثث، حيث ستنفخ الروح ثانية في هذه الأجساد، ويصعب تصور النتائج. وبدا أنه يوجد هنا جميع أنماط البشر ماعدا المسنين. وقلت لنفسي لا بد أن الشبان يموتون بأعداد كبيرة، بل ربما كانوا قد ماتوا في حوادث معينة. يجب أن أحسن الاختيار، لكن بسرعة وأغادر المكان.

عندما تراجع الآخرون برصانة، بدأت أتمشى بالقرب من هذا الجيش الهامد من الموتى، مستودع المفقودين هذا، أتفحص

وجوههم وأجسامهم العارية. ورحت أنظر، كما يتمعن المرء طويلاً في لوحة، حتى بدت قيمتها ـ قيمة الحياة ـ تتلاشى، إذ أنك لا توجد إلا كلحظة من الإحباط المجسّد بين أبديتين. ثم أخذت أفكر بالشعر والأطفال والفجر، حتى بدأت أتساءل لماذا كنت أريد أن أستمر في العيش، ولماذا تبدو الحياة أحياناً جديرة بذلك.

رحت أتفحص عدّة أجساد على أمل أن أجد شيئاً أفضل. توقّفت أخيراً. فقد رأيت «الرجل الذي كنت أريد أن أكونه»، بل يبدو أنه هو الذي اختارني. كان مكتنزاً، ووسيماً على نحو كلاسيكي كأيّ تمثال منحوت في المتحف البريطاني، لم يكن أبيض ولا أسود، بل يميل إلى السمرة، وله قضيب غليظ جميل وخصيتان ثقيلتان. أخيراً سيكون لي جسد لاعب كرة قدم إيطالي: لنقل لاعب قلب الهجوم. كان وجهي يشبه وجه آلان ديلون الشاب، وبالطبع سأستخدم دماغي في قيادة هذه التوليفة للعب لمدة ستة أشهر.

«هذا»، قلت وأشرت إلى جسد بين صفوف الأجساد، «إنه الرجل الذي أريد أن أكونه. إنه يبدو جميلاً. لقد أحب أحدنا الآخر».

«هل تريد أن ترى عينيه؟»، قالت الممرضة التي كانت تنتظر عند الباب، «من الأفضل أن ـ».

«لم لا؟».

قالت: «تأمّله إذن».

فتحت عينيّ واسعاً. كانت الغرفة عديمة الرائحة بشكل يثير الريبة، لكني عندما اقتربت منه، شممت رائحة مطهّر. على أي حال لقد أحببته. وللمرة الأولى ستكون لي عينان كستنائيتان داكنتان.

«جميل». فكّرت في أن أربتّ على رأسه، لكني أدركت أنه سيكون بارداً. قلت له: «أراك فيما بعد يا صديقي».

في طريقي إلى الخارج شاهدت باباً ثقيلاً آخر مغلقاً وسألت:

«هل يوجد المزيد منها هناك؟ هل تُحفظ هناك أجساد للاعبي القسم الثاني؟»

قالت: «إن الأجساد القديمة تُحفظ هنا. وستحفظ هيئتك السابقة هناك».

«هيئتي؟» سألت. كانت العبارات الملطّفة تنذرني دائماً بمخاوف كبيرة.

«الجسد الذي تكتسيه حالياً».

«حسناً. لكن لفترة قصيرة فقط».

«لفترة قصيرة»، كرّرت.

«لن يصيبها مكروه هناك، أليس كذلك؟».

«طبعاً لا».

«ألن تبيعوها؟».

«همم... لماذا يتعين علينا أن نبيعها؟»، ثم أردفت «لا توجد نية في الإساءة. فإذا غيّرت رأيك بعد ستة أشهر، أو إذا لم تعد، فسنلغي الهيئة بالطبع».

«حسناً. لكنّي أودّ أن أرى المكان الذي سُتعلق فيه».

اتجهت نحو باب هذه الغرفة. سد البوّاب طريقي بذراعه القوية.

قالت الممرضة: «إنها سرّية».

هنا تدخّل رالف وقال: «آدم، ربما كنت تعرف بعض الأشخاص هناك مع أنه أمر بعيد الاحتمال. يقول البعض إنهم مهاجرون، ويبدو أن آخرين قد ماتوا، وآخرين اختفوا، لكنّهم يعودون إلى هنا ويندمجون مرة أخرى كأجساد جديدة».

«هل هذا كثير؟» سألت.

لم يحر رالف جواباً. شعرت أني بدأت أصبح مزعجاً.

قلت: «قلت إنكم ترغبون في أن ينضم إليكم أشخاص فضوليون مثلي. ومع ذلك فإنكم لا تجيبون عن أسئلتي».

«كن صبوراً. فقريباً سيتاح لك وقت كافٍ. وعندها ستفهم الكثير من الأشياء». ضمني إليه وعانقني. «سأتركك الآن. سأزورك بعد انتهاء العمل».

«سأشعر كأني إنسان جديد».

«هذا صحيح».

بعدها وضعوني في السرير في غرفتي، وراح الطبيب ومساعده يجريان فحوصاً عليّ. كان الطبيب يصفّر، وأغمضت عينيّ. لقد أصبح جسدي شيئاً سيشتغلون عليه. تخيّلت أن جسدي الجديد أُخذ من الرف وتم تجهيزه في الغرفة الأخرى.

بعد برهة قال الطبيب: «إننا جاهزون للبدء الآن. لقد أحسنت الاختيار. فقد اخترت هيئتك الجديدة مرات عديدة. إنها تتطلع بفارغ الصبر لأن تخرج من هذا المكان، وأنا سعيد بأن يومها قد حان أخيراً».

كنت قد تعوّدت على فكرة أن أموت وأنا تحت تأثير المخدّر، وأن هذه اللحظات قد تكون لحظاتي الأخيرة على وجه الأرض. وما أن دخلت في مرحلة التخدير حتى لاحت أمامي وجوه ولديّ عندما كانا صغيرين. ورغم ذلك انتابني خوف بطريقة جديدة: لا من الموت فحسب، بل مما يمكن أن تأتي به الحياة الجديدة أيضاً. كيف سأشعر؟ كيف سأكون؟

3

كان لأحد أصدقائي المغرمين بالنظريات فكرة مفادها أن مفهوم النفس، والفرد المنطوي على نفسه، الواعي لذاته، وأيّ سيرة ذاتية يمكن أن تبوح بها تلك النفس أو تكتب عنها، يمكن أن تكون قد نشأت في الوقت الذي اخترعت فيه المرآة، عندما شاع استخدامها لأول مرة في البندقية في مطلع القرن السادس عشر. فعندما أصبح بوسع الناس أن ينظروا إلى وجوههم، ويروا انفعالاتهم وأجسامهم، أصبح بإمكانهم أن يتساءلوا من هم، وإلى أي مدى يختلفون عن الآخرين ويشبهونهم.

أصبح ولدايّ، عندما كادا يبلغان السنتين من عمرهما، مفتونين بصورتيهما في المرآة. أتذكّر أنه عندما بلغ ابني السادسة من عمره، كان يتسلّق الكرسي ويصعد منه إلى طاولة الطعام لينظر إلى نفسه في المرآة التي تعلو الموقد، وهو يقبّل أصابعه، وكنت أقول لنفسي وهو يعدّل قبعته: «يا للروعة! يا لك من رجل محظوظ، لأن الله حباك بابن جميل كهذا!» وبالطبع، فقد أصبح الطفلان في ما بعد، هما والمرآة، شيئين متلازمين. وأذكر أني قلت لهما آنذاك: استفيدا من هذا إلى أبعد الحدود، فسيأتي وقت لن تتمكنا فيه من النظر إلى نفسيكما دون أن تجفلا من هيئتكما.

وكما قال صديقي، إذا لم يكن بمقدور المرء أن يرى نفسه فلن ينضج. إذ لن يكون بوسعه أن يرى أين ينتهي وأين يبدأ الآخرون. ويمكن تأكيد هذه النظرية بوضع مرآة في قفص حيوان.

كنت ما أزال نصف واعٍ. بدأت أتحرك. وتبين لي أنه بإمكاني أن أقف. وقفت أمام مرآة طويلة في غرفتي، أنظر إلى نفسي، أو إلى الشخص الذي أصبحته الآن لفترة من الزمن. ولاحظت أن المكان مزود بمرايا أخرى. عدّلت وضع المرآة حتى حصلت على مشهد كامل. وتأكد لي في هذه المرايا أنه تم استنساخي، فضلاً عن تحويلي إلى شخص آخر. فأينما استدرت كان هناك الكثير مني، المزيد، المزيد من شخصيتي الجديدة، كنت أحسّ بدوخة تعتريني. جلست، استلقيت، قفزت إلى الأعلى والأسفل، لمست نفسي، لويت أصابعي وأصابع قدمي. هززت ذراعيّ وساقيّ، وأخيراً، وضعت رأسي بعناية على الأرض قبل أن أدفع نفسي وأقفز إلى الأعلى وأقف عليه، وهو شيء لم أفعله منذ خمس وعشرين سنة.

عندما أصبحت على مشارف الخمسينات من عمري، بدأت أفقد نضارتي الطبيعية. وقيل لي إني عندما كنت شاباً كان البعض يعتبرونني جذاباً. وقد كنت أمضي وقتاً وأنا أمشّط شعري، أكثر مما كنت أمضيه في حلّ معادلات رياضية. كنت على ثقة تامة بأن الناس لن يرفضونني بسبب مظهري. فعندما كنت طفلاً، ترعرعت في الحقول وبين الجداول الجارية، كنت أمضي يومي وأنا أجري واستكشف الطبيعة. إلا أني أصبحت في السنوات القليلة الماضية، بديناً وأصلعاً. وقد جعلت حالتي القلبية شفتي العليا تبدو رطبة باستمرار. وعندما بلغت الأربعين بدأت أواجه مشكلة إذ اضطررت لأن أضع حزامي فوق معدتي أو تحتها. وقبل أن ينصحني أولادي، أصبحت لفترة من الزمن واحداً من أولئك الرجال الذين يصل بنطالهم إلى صدرهم.

وعندما بدأت أدرك مدى تدهور حالتي، بعد أن لفت انتباهي عاشق خائب الأمل، صرت أصبغ شعري، بل حتى انتسبت إلى أحد النوادي الرياضية. وسرعان ما أصبحت أشعر بجوع شديد إلى درجة أني رحت أتناول كل شيء تقع عليه يدي، حتى الفاكهة. ولم يستغرق الأمر كثيراً حتى أدركت أنه توجد بضعة أشياء غريبة

أخرى غير الافتتان بالنفس في منتصف العمر. وعرفت أن اللعبة انتهت عندما اضطررت إلى وضع نظارات للقراءة كي أتمكن من رؤية الصور في المجلة التي كنت أستمني عليها.

لم يكن بوسع أي امرأة من النساء اللاتي كنت أعرفهن أن تستسلم بهذه الطريقة. فقد كان من النادر ألا تجد زوجتي تتحدث هي وصديقاتها عن إزالة التجاعيد وشد البطن، وعن الغذاء وشكل أجسادهن، وحجمهن ولياقتهن البدنية، ونوع التمارين التي يمارسنها أو لا يمارسنها. وسمعت أنه كانت لدى بعض النساء، لا الممثلات فقط، فرق من المدربين الشخصيين، وأخصائيون في الحميات، وإخصائيون في التغذية، ومعلمون لرياضة اليوغا، ومجمّلون ومدلّكون يعملون على أجسادهن يومياً، كما لو كان بالإمكان معالجة شوق العقل وقلقه بوساطة الجسد. فمن لا يريد أن يكون مرغوباً أكثر، وبالتالي أن لا يكون محبوباً؟

وعلى العكس، فقد حاولت أن أعزل نفسي عن جسدي، كما لو كان صديقاً محرجاً لم أعد أريد أن أعرفه. ولم يتلاش كبريائي، إحساسي بذاتي، هويتي إن أردت، بل انتقل إلى شيء آخر. وقد لاحظت ذلك مع أصدقائي. فقد ذهب بعضهم إلى مجلس اللوردات، وأصبحوا أعضاء في بعض اللجان. وكانت تقام لهم بين الحين والآخر أمسيات «للتقدير»، تقدم لهم مكافآت وجوائز وأوسمة وشهادات دكتوراه. وفي نهاية السنة، ما أن يبدأ توزيع هذه الأشياء، حتى يبدأ زمن القلق للمسنين وأطبائهم. وأصبح المقام والهيبة أكثر أهمية من الجمال، وكنت أتصور أننا، كما لو كنا في رسوم متحركة، نغرق في أوحال الشيخوخة، تجرنا الأوسمة، وحركتنا الوحيدة التفاتة تتسم بالغيرة لنرى ما هي المكافآت التي يحصل عليها معاصرونا.

وقد حدث لي شيء من هذا القبيل، ولعلك ستشعر بالسعادة إذا سمعت ذلك. فقد كان يعاد تمثيل مسرحياتي الأولى بين الحين والآخر، غالباً من قبل هواة مصابين بالروماتيزم، رغم أنه لم يقم

أحد بتمثيل مسرحيتي الأخيرة، لأنها اعتبرت من «الطراز القديم». وانكب أحدهم على كتابة سيرة حياتي التي كانت، بالنسبة لكاتب، أشبه بعامل بناء يحفر اسمه على شاهدة قبره. وبدا أن كاتب سيرتي يعرف أكثر مما كنت أعرف ما الذي كان مهماً لي. كان شاباً، وكانت سيرتي أول عمل يقوم به، محاولته الأولى. ورغم جهودي، كنا نعرف، أنا وهو، أن حياتي لم تكن مليئة بالفضائح لكي يصبح كتابه موضع اهتمام كبير.

إلا أني كنت قد كتبت مذكراتي، وجمعت قدراً من المال واشتريت بيتين دون الكثير من التفكير في بداية الستينات، بيت لولديّ، وبيت لي، تبين في ما بعد أنه يقع في منطقة أصبحت منطقة عصرية أنيقة.

وكان الشيء الذي كنت أريد أن أُعالج منه في الآونة الأخيرة، إذا كان عليّ أن أُعالج من أيّ شيء، هو اللامبالاة، وشيء من الكآبة أو التعب الطفيف، والإحساس بأنّ اهتمامي بالأشياء ـ الثقافة، السياسة، الناس الآخرون، وأنا نفسي ـ بدأ يتهاوى إلى الحضيض. فقد كان ربعي حياً، ذلك الجزء الذي يريد «جرعة» نقيّة صافية من الحياة.

ولم أكن أنا الشخص الوحيد. فقد صوّر لي أحد أصدقائي الناجحين، الذي كان سوداوياً ومكتئباً، والذي يكبرني بعشر سنوات، أن رأسه عبارة عن جرح سُلخ عنه الجلد. وكان دائم الغضب والألم والجنون، تماماً كما كان عندما كان في الخامسة والعشرين. ولم يكن يتمتع بذلك الصفاء النيرفاني. لم يكن خالياً من الطموح والحسد.

قال: «لا أعرف إن كنت ستكون لطيفاً في تلك الليلة، أم أنك ستستشيط غضباً بسبب موت النور. وبعد تفكير عميق، تبين لي أني أفضّل الأشخاص الذين يتمتعون باللطف والرقة. وكنت كما لو أن دماغي بيت يقطنه عدد كبير من الأقارب الذين لا يكفّون عن الشجار،

والذين يتمنى المرء أن يلقي بهم جميعهم إلى الخارج برحابة صدر، لكنه لا يستطيع.

لكن أين يمكن للمرء أن يجد عزاء؟ من سيعلّمنا الحكمة؟ نسأل من يملكها ومن بوسعه أن ينقلها إلينا؟ بل هل هي موجودة؟

ذات يوم كان هناك دين، أما الآن فقد حلت محله «الروحانية»، أو السياسة، بالنسبة للكثيرين منا سياسة من النوع «الأخوي». كان ثمة ثقافة، أما الآن فقد حلّ محلها التسوّق وحب الشراء.

عندما أفقت بعد العملية، لم تعد تخطر لي هذه الأفكار المرهِقة، التي كانت تجول في رأسي منذ أشهر. فقد أصبحت أقوم بأشياء أكثر أهميّة، كالوقوف على رأسي! ودون أن يخبرني رالف بهذا الأمر ـ فقد كان متفائلاً ـ كنت أتوقع أن أشعر، على الأقل، وكأني ضُربت ضرباً مبرحاً. وقد توقّعت أن تستغرق نقاهتي أياماً. ومع أني لم أكن قد استعدت وعيي تماماً، فإنني وجدت أنه يمكنني أن أتحرّك بسهولة.

لكني ما أن استلقيت على السرير، حتى غططت في سبات عميق. وحلمت هذه المرة أنني كنت في محطة للقطارات. فعندما كنت أستقل القطار، كنت أحبّ أن أصل إلى المحطة مبكراً حتى أراقب الأجساد المسكونة يدور أحدها حول الآخر بسهولة. ومع ذلك فقد بدأ يتملكني شيء من الرهاب من أجساد الآخرين. إذ لم أكن أحبّ أن تكون قريبة جداً مني. كان بإمكاني أن ألمس الغرباء، والأصدقاء، بل وحتى نفسي. أما في الحلم، فعندما وصلت إلى المحطة، كان الجميع يريدون استقبالي، تحلقوا حولي، وأخذوا يصافحونني، يلمسونني، يقبّلونني، ويمسدونني مهنئين.

استمرت هذه الغفوة. وبطريقة ما بدأت أدرك أني كنت بدون جسدي. وقد يكون من الأفضل القول إني كنت معلقاً بين جسدين: خارج جسدي، لكن ليس في جسد آخر بعد. وقد راودتني ما حسبت أنها صور، لكني أدركت أنها كانت أحاسيس جسدية حقيقية، كما لو

أنّ حياتي بدأت تعود ببطء، كشعور طبيعي. وكنت أعتبر أن من الأمور المسلم بها دائماً أنني كنت شخصاً، وهذا أمر جيد. أما الآن فقد كان ثمة شيء يذّكرني بأني أولاً وقبل كل شيء جسد يريد الأشياء.

في هذا الوضع الغريب، رحت أفكّر كيف يكون الأطفال لصيقين بجلود أمّهاتم طوال الوقت تقريباً. فالجسد هو ساحة لعب الطفل الأولى، وتجاربه الحسّية المبكرة. ولا تمضي فترة طويلة حتى يتعلم الطفل أن بإمكانه الحصول على أشياء من أجساد أخرى: الحليب، القبلات، قناني الرضاعة، المداعبات، الصفعات. فأيدي الناس مفيدة لهذه الأمور، وذلك لأنها جُعلت لاستكشاف مختلف الفتحات في الجسد، التي تخرج منها مختلف الأشياء، شئت أم أبيت: العرق، الغائط، المني، القيح، النَفَس، الدم، اللعاب، الكلمات. كما تستطيع، إن شئت، أن تضع أشياء في هذه الفتحات.

كانت أمي أمينة مكتبة، وكانت بدينة ولا تقدر على المشي مسافة طويلة. فالحركة كانت تزعجها. وكانت ملابسها واسعة فضفاضة. لم تكن تمارس أي نوع من الحميات، إلا عندما قرّرت، ذات يوم، أن تصوم. فلم تعد تتناول طعام الفطور. وعندما كان يحين موعد الغداء، كان يتملكها صداع وتشعر بالدوخة. كانت تشعر بالجوع وتتناول فطيرة من القشدة لتستعيد حيويتها.

كانت أمي جائعة طوال الوقت، لكني أظن أنها لم تكن تعرف لماذا كانت جائعة. وعندما سألتها لماذا تستهلك الكثير من القمامة، أجابت: «وما يدريك من أين تأتيك وجبة طعامك القادمة، أليس كذلك؟». قد تبدو الأشياء هكذا لبعض الناس، كما لو أن هناك شحاً في الطعام، ويجب عليك أن تتناول أكبر قدر يمكنك أن تلتهمه مع أنه قد لا يشبعك أبداً.

لم تكن تدعني أرى جسدها أو أنام إلى جانبها على الإطلاق، ولم تكن تحبّ أن تلمسني. كما لم تكن تريد أن تلمسها يد أحد،

وكانت تقول «لا ضرورة لذلك». ربما تركت نفسها تصبح بدينه لكي لا تغوي أحداً.

عندما تكبر في السن، تبدأ تتعلم أنك لا تستطيع أن تلمس أي شخص، ولا يستطيع أي شخص أن يلمسك. ومع أن الأباء يشجعون أطفالهم على أن يكونوا كرماء، فهم لا يشاطرونهم عادة أعضاءهم التناسلية، أو أعضاء شريكاتهم. بل حتى لا يُسمح لك أحياناً بأن تلمس أجزاء من جسدك أنت، وكأنها لا تخصك. وثمة مشاعر يحرّم على جسدك أن يحدثها، مشاعر لا يحبّ الكبار أن يحس بها أي شخص. إننا نعتبر أنفسنا متحررين ليبراليين، وأن للآخرين عادات يتعذر علينا تفسيرها. ومع ذلك، فإن آداب سلوك لمس الأجساد صارمة في كل مكان من العالم.

ومع أن كلّ شخص يختلف عن الآخر، فإن الجميع يتشابهون في الأشياء التي لا يستطيعون التحكم فيها: فالأجساد تفعل أشياء تلقائية مختلفة كالبكاء أو السعال أو التبوّل أو النمو أو الاستثارة الجنسية. لكنك سرعان ما تكتشف أن تلك الأجساد قد تنجذب إلى أجساد أخرى أو تنفر منها، حتى ـ أو خاصة ـ عندما لا تريد أن تكون كذلك.

لقد كبرت وترعرعت بعد أن وضعت الحروب الأوروبية الرئيسية أوزارها، وكنت ألعب ألعاباً حربية بالجنود البلاستيك في مزرعة أبي. وكان عقلي مهووساً بصور ملايين الأجساد الذكور المكسوة بالثياب والتي تتخذ أوضاعاً متشابهة. لم يكن العالم الذي صنعه هؤلاء الرجال سوى دمار وفوضى، لكنهم كانوا على الأقل، كما كان أبي يقول «مستعدين لها جيداً». وفي المدرسة بدا لي أن لكلّ معلّم عاهة معيّنة، أذناً واحدة، ساقاً أو خصية واحدة، أو ندبة خلفتها الحرب ـ التي كانت تبهرنا. لم يخطر ببال أحدنا أنه سيكون لنا شيء واحد من أيّ شيء، الذي يفترض أن يكون منه اثنان، لكننا لم نكن نكفّ عن التفكير في هذا الموضوع. كان هذا سوء فهم التعليم: فقد كان المعلمّون يهتمون بالعقول، وكنا نحن نهتم بالأجساد. الأجساد التي كنت أريدها عندما أكبر.

وأصبحت أدرك حقيقة موتي ما أن بدأت أدرك أن بإمكاني ممارسة الجنس بشكل فعلي مع الآخرين. كان كلّ شيء يجعل الشيء الآخر أمراً محتملاً. ومع أنك قد تموت، يمكنك أن تقول «الوداع» قبل أن تغادر.

يوجد في الريف عدد أقل من الأجساد، لكن المسافة التي تفصل في ما بينها كبيرة. وما جعلني آتي إلى المدينة هو أن الأجساد أكثر قرباً، وتشع منها حرارة وتمتلك شيئاً من الجاذبية. فالأجساد هنا تتدافع. هل تفعل ذلك لتحصل على فضاء أوسع، أم حتى يلمس أحدها الآخر؟ والطاولات في المطاعم والحانات تكاد تلتصق ببعضها. وبطبيعة الحال، يبدو أن الأجساد في القطارات وفي قطارات الأنفاق يمنح أحدها الحياة إلى الآخر، وهو السبب الذي يجعل الناس يتوجهون إلى عملهم. ورغم أن الأجساد لا يعرف أحدها الآخر، فإن أي جسد قد يفي بالغرض في بعض الأحيان. لماذا يريد أي شخص ذلك، وخاصة شخص يكاد يكون مصاباً برهاب الأماكن المغلقة مثلي؟

وإذا اقترب منك جسد شخص آخر أكثر من اللازم، يمكنك أن توقفه بالطعن أو بالصلب. يمكنك أن تطلق النار عليه أو تحرقه لتوقفه أو تمنعه من أن يتفوه بكلمات تثير حنقك. وإذا حصل جسدك على الكثير ـ ومن منا لا يفعل ذلك؟ ـ فقد ينتابك شعور بعدم الرغبة، وتلتحق بأحد الأديرة، أو تدمن عليها. وثمة أجساد تكون مصدر إزعاج لأصحابها، إذ تبدو متقلّبة كالحيوانات الجامحة، أو قد تزداد حرارة مشاعرها دون أن يكون فيها منظم للحرارة.

عندما كنت شاباً كنت أريد أن ألج الأجساد، لا في جزئها الهيكلي فقط، بل كنت أريد أن أحدث فتحة فيها، لكي أعيش في داخلها. وإذا بدا لك أن هذا الأمر ليس عملياً فيمكنك على الأقل أن تتعرّف على جسد بعد أن تنام بجانبه. ثم يمكنك أن تضع قطعاً من جسدك في فتحات الأجساد الأخرى. قبل أن ألتقي بزوجتي الحالية، كنت قد أمضيت فترة من الزمن وأنا أقرّب مناطق حساسة من جسدي

من أجزاء حساسة من أجساد أخرى بقدر ما يمكنني، حتى أعرف ما تريده تلك الأجساد. ولم أفقد ولا للحظة واحدة شدة افتتاني بأجساد النساء. ويبدو أن النساء قد فهمن هذا: وهو أن قوة رغبتنا تجعلنا مجانين ومرعوبين. ويصبح بوسعك أن تقتل امرأة لشدة رغبتك فيها.

وكلما كبرت وازدادت أمراضك، ولم يعد جسدك يجاري الموضة الدارجة، قلّ عدد الذين يرغبون في لمسك. وهنا يتوجب عليك أن تدفع لمن يريد أن يلمسك. إذ ستقوم المدلّكات والمومسات بمداعبتك إذا ما نفحتهن نقوداً. وكم من علاج في أيامنا هذه يتضمن اللمس بالأيدي؟ فالممرضات يعالجن المرضى. ويمضي الأطباء حياتهم وهم يلمسون الأجساد، ولهذا السبب يدخل الشباب إلى كلية الطب. أطباء الأسنان وأطباء النساء يحبون الظلام في الداخل. ويمكن أن يلمس بعض العاملين، كما هو الحال في محلات بيع الأحذية، بعض أعضاء الجسد دون الحاجة إلى حضور محاضرات في علم التشريح. ويقوم رجال الدين والسياسيون بإخبار الناس عما يمكنهم أن يفعلوه بأجسادهم. ويختار الناس عملهم دائماً وفق تفضيلهم للأجساد، ويجب على مستشاري الوظائف أن يضعوا ذلك نصب أعينهم. فوراء كلّ مهنة توجد تميمة.

وفي سن البلوغ يبدأ القلق ينتاب الناس - إذ يقول البعض إن النساء عرضة للقلق أكثر من الرجال، لكني لست مقتنعاً بهذا الرأي - بسبب شكل أجسادهن وحجمها. فهن يفكّرن بذلك كثيراً، مع أن العاقلات منهن يعرفن أن أجسادهن لن توّفر لهن الشعور بالرضى الذي يصبون إليه، وذلك لأن ما يقلقهن هو شهيتهن لا أجسادهن. فبطبيعة الحال، تعدّل الشهية شكل جسدك وكيف ينظر إليه الآخرون. وقد يبدو أن الجوع والصوم والحمية حلول مجدية لمشكلة الشهية أو الرغبة.

يبدو لي أن شهية جسدي الجديد بدأت تنتعش أيضاً. إذ بدأت أصحو لأني بدأت أدرك الحاجة اللاعجة. لكني أحسست بأن شكلي

أصبح مثل بناية لم أرتدها من قبل. من أين يأتيني هذا الشعور؟ ماذا كنت أريد؟ على الأقل كنت أعرف أن معدتي لا بد خاوية. أولاً، كان عليّ أن أفيق تماماً حتى يصبح بإمكاني أن آكل.

كانت ساعتي على المنضدة بجانب السرير. تمكنت من رؤية الأرقام بوضوح شديد، لكن السوار لم يعد يلائم رسغي الجديد الغليظ. كنت أعرف على الأقل أن الوقت كان صباحاً وأنني نمت طوال الليل. كان وقت الفطور. لم يكن بوسعي أن أخرج من الغرفة بجسدي الجديد بدون تحضير.

واصلت تفحص نفسي في المرآة، أخطو إلى الأمام ثم أعود خطوة إلى الوراء، أتفحص ذراعيّ ورجليّ المكسوتين بالشعر. أدير رأسي هنا وهناك، أفتح فمي وأغلقه، أنظر إلى أسناني الجيدة والعريضة، لساني النظيف، أبتسم وأعبس، أجرّب تعابير مختلفة. لم أكن وسيماً فقط، بل كانت قسماتي وسماتي متناسقة على نحو جميل. طلبت الممرضة أن تفحص عينيّ. فهمت قصدها. كانت هناك رقة، لهفة. اكتشفت توقاً ورغبة، بل حتى شيئاً كئيباً، في عينيّ.

بدأت أعشق نفسي. فالجمال أو الحياة نفسها لا تعني الشيء الكثير إن كنت قابعاً في غرفة وحيداً. فالجنة هي الناس الآخرون.

فُتح الباب ودخل الجرّاح.

«تبدو رائعاً»، وراح يدور حولي. «لقد صنع مايكل أنجلو تمثال دافيد!».

«كنت سأقول إن فرانكشتاين قد ـ».

«لا توجد كدمات. هل تشعر بأنك على ما يرام؟».

«أظن ذلك».

لكن صوتي بدا غريباً بالنسبة لي. فقد خفّت النبرة، لكن كان فيها قوة، وأصبح جهورياً أكثر من قبل.

قال: «اذهب وتبول».

في الحمّام رحت ألمس قضيبي الجديد، وانشغلت به كما يفعل طفل في الرابعة من عمره. أخذت أزنه وأتفحصه. رفعت ذراعيّ ورحت أحرّك ردفيّ؛ لا شكّ أني قطّبت أيضاً. كان ألفيس برسلي بالطبع، واحداً من الذين أثروا عليّ في الماضي بالإضافة إلى سقراط. عندما بلت، كان الدفق صافياً وقوياً. وقبل أن أعيد قضيبي إلى مكانه عصرته عصرة أخيرة. من لا يريد أن يرى هذا، يا إلهي، لا بد أن الشيء الكثير في انتظاري! شهوتي ـ اعتراني شك بأن جميع شهواتي ـ قد أخذت أبعاداً أخرى.

سأل: «هل كلّ شيء على ما يرام؟».

هززت رأسي. دخلنا إلى غرفة أخرى حيث وضع الطبيب أجزاء مختلفة مني في آلات، وفحصني، أو فحص جسدي الجديد، فحصاً شاملاً. وفيما كان يفعل ذلك، رحت أثرثر بصوتي الجديد، في الغالب عن ذكريات الطفولة، أستمع إلى نفسي في محاولة لأن استجمع نفسي مرة أخرى.

«انتهيت»، قال أخيراً، وقد حُرمت من متعة أن أكون مولوداً طبيعياً، وأخذ يراقبني وأنا أرتدي الثياب التي اشتراها لي رالف. ثم أردف قائلا: «جيد. جيد. مدهش. لقد نجحت».

«ولماذا تبدو مندهشاً؟ ألم تفعل ذلك من قبل؟».

«طبعاً. لكن في كل مرة يبدو الأمر وكأنه معجزة. لقد حققنا نجاحاً آخر. لقد انتهى كل شيء الآن. إن دماغك والجهاز العصبي في جسدك على أحسن ما يرام. لديك الآن دماغك القديم في جسد جديد. لقد بدأت حياة جديدة».

قلت: «هل هذا كل شيء؟ ألا أحتاج إلى تحضيرات أخرى؟».

فقال: «من الناحية العقلية أظن أنك ستتعرض إلى صدمات كثيرة، لذلك يجب إجراء بعض التعديلات. يستحسن مناقشة هذه الفكرة مع رالف، ربيبك. بالطبع فإنك لا تستطيع أن تتحدث عن هذا الأمر بحرية. أما الآن فبإمكانك أن تخرج يا سيدي. فقد بدأت

ساعتك من جديد، لكنها ما تزال تدقّ. سأراك بعد ستة أشهر. أصبحت تعرف مكاننا».

«وهل أعرف من أنا؟».

«آمل أن تكتشف ذلك بنفسك. إنني متشوق لمعرفة كيف ستسير الأمور معك».

في قسم الاستقبال، سلّمتني الممرضة محفظتي والحقيبة التي تضم الأشياء التي قال لي رالف إني أحتاجها خلال الساعات القليلة الأولى بعد «تحوّلي». أخرجت الممرضة نسخة من مذكراتي من تحت الطاولة، وطلبت مني أن أوقعها لها.

«أنا معجبة بأعمالك منذ زمن طويل يا سيدي».

عندما بدأت أكتب اسمي القديم بأصابعي الجديدة أصبح عليّ أن أنحني من ارتفاع مختلف. فللمرة الأولى منذ سنوات عديدة، فعلت ذلك دون أن أضطر إلى تعديل وضعية جسمي حتى أتفادى ألماً متوقعاً. رجعت خطوة إلى الوراء ورحت أحدّق في توقيعي الذي كان يشبه تزييفاً سيئاً لخطي الرديء. أخذت قطعة ورق أخرى وخربشت عليها اسمي عدة مرات. ورغم كلّ محاولاتي فلم أستطع أن أجعله يبدو مثل توقيعي القديم.

طلبت الممرضة المبتهجة سيارة أجرة لي.

انتظرت على الأريكة وقد امتدت أمامي ساقاي الطويلتان الجديدتان، وأخذتا مسافة كبيرة من الغرفة ورحت ألمس وجهي. وأثناء مراقبتي لها وهي تعمل في قسم الاستقبال، خطر لي أن الممرضة الشهية ـ التي كانت جاذبيتها تكمن حقاً في نقاء جسدها الذي لم تكن تشوبه شائبة ـ قد تكون في حوالى السبعين أو التسعين من العمر. وشأن المساعدين الذين يعملون عند أطباء الأسنان، تكون أسنانهم ممتازة دائماً، فلا بد أنها تكتسي هي نفسها جسداً جديداً. لكنها لماذا تقوم بمثل هذا العمل؟

اقتربت صبيّة شابة ذات شعر طويل منسدل على كتفيها، كأنها عارضة أزياء، من الطاولة وطلبت سيارة أجرة. كان ردفاها، اللذان يشبهان قليلاً أرداف الفتيات من أمريكا اللاتينية، يخلبان الألباب فانطلقت مني تنهيدة لا بد أنها سمعتها، لأنها التفتت وابتسمت. وقد كان يصعب عليّ أن أحدد إن كانت في أواخر سنين مراهقتها، أو أوائل الثلاثينات من عمرها. خطر لي أننا نعدّ مجتمعاً يتقارب فيه الجميع في العمر. كما لاحظت أن المرأة تحمل حقيبة مفتوحة من طرفها، فلمحت ما بدا لي وكأنه طرف ثوب نوم وردي اللون من الفانيلا. جلست أمامي، تنتظر أيضاً، بعصبية. وفي الواقع بدا أنها كانت غريبة على نفسها، كما أشعر أنا، إذ راحت تحرك أجزاء مختلفة من جسدها لتجربها، على نحو خجول في بادئ الأمر، ثم بشيء من الاحتفال الداخلي. ثم ابتسمت لي بتلك الثقة المتألقة بحيث خطر لي أن أعرض عليها أن أشاركها سيارة الأجرة. إذ لا بد أن نشكل نحن الاثنين زوجاً رائعاً!

لكني كنت أريد أن أعود إلى وسط الناس العاديين، الناس الذين تتهالك أجسادهم ويخشون الموت. استويت واقفاً وألغيت طلبي لسيارة الأجرة. قلت لنفسي سأستمتع بالمشي. إذ لن يكون المشي لمسافة طويلة عائقاً بالنسبة لي. وبدا أن الممرضة قد فهمت قصدي.

«أتمنى لكِ حظاً سعيداً»، قلت للمرأة.

توجّهت نحو الطريق الرئيسي. لا بد أني سرت خمسة أميال. كنت أخطو خطوات واسعة وكبيرة، وقد أحببت الحركة الثابتة. لقد أصبح جسدي الجديد أطول وأثقل من «جسدي» السابق، لكني شعرت بأني أصبحت أكثر خفة ونشاطاً من قبل حسب ما أذكر، كما لو كنت أجلس وراء مقود سيارة فاخرة. وأصبح بإمكاني الآن أن أطل من فوق رؤوس الآخرين في الشارع. وكان على الآخرين أن ينظروا إلى الأعلى ليتطلعوا إليّ. انتابني إحساس بالخوف كطفل.

لقد أصبح بمقدوري الآن أن أضرب الناس. فربما كان الشجار بداية جيدة لتجسيدي الجديد.

وجدت مقهى رخيصاً فتناولت فيه وجبة طعام. تناولت وجبة طعام أخرى. توجهت إلى فندق كبير غير معروف كانوا قد حجزوا لي غرفة فيه. وجدت لنفسي مكاناً جيداً بالقرب من البار يمكنني أن أنظر منه إلى الناس الذين كانوا ينظرون إليّ. هل كانت تلك المرأة تبتسم لي؟ كان الناس ينظرون إليّ، لكن بدون ذلك الاهتمام الذي كانوا يبدونه سابقاً. وأحسست أن عقلي أضحى واضحاً وصافياً للغاية. لقد أصبحت حواف العالم واضحة المعالم الآن! وفي الواقع فقد مضى وقت طويل منذ أن كنت أرى بهذا الشكل السويّ. وبعد احتساء كأسين، حصلت على درجة أكبر من الوضوح مع مسحة من النشوة، لكني لم أشأ أن يصبح عقلي مشوشاً في أول يوم في جسدي الجديد.

كنت أنتظر في استراحة الفندق التي تعج بالناس عندما دخل رالف مسرعاً ووقف هناك يتطلع حوله. أزعجني أنه لم يتمكن من التعرف بسرعة على الكاتب الذي كان يعبده، والذي حفظ كلماته عن ظهر قلب. الكاتب الذي كان يؤمن بأنه يستحق الخلود! استغرق الأمر بضع لحظات حتى يتعرف على جسدي من بين الناس الآخرين، وكان ما يزال غير واثق إن كنت أنا نفسي أم لا.

توجهت نحوه وقلت: «مرحبا يا رالف، هذا أنا، آدم!».

ضمني إليه وعانقني، وأخذ يمسد بيديه على كتفي وظهري، حتى أنه ربت على بطني.

«جسد صلب عظيم، إنك تبدو رائعاً. إني فخور بك. أنت تتمتع بقوة وحيوية. كيف تشعر الآن؟».

قلت: «لا شيء أفضل من هذا». كان صوتي قوياً، ثم أضفت: «شكراً يا رالف، لأنك صنعت لي هذا المعروف».

قال: «بالمناسبة، ما اسمك؟».

«نعم؟».

«إنك بحاجة إلى اسم جديد. بالطبع يمكنك أن تحتفظ باسمك القديم، أو أن تشتق منه اسماً. لكنه قد يسبب لك بعض الارتباك. إذ أنك لم تعد آدم حقاً. ما رأيك؟»

كانت غريزتي تدعوني لتغيير اسمي. فهذا سيساعدني في التذكر بأنني أصبحت الآن توليفة جديدة. على أي حال فقد أصبح الهجينون الآن يتبعون الموضة.

«ماذا سيكون؟» سأل.

قلت أخيراً: «سأطلق على نفسي ليو رافائيل أدامز. هل يبدو هذا اسماً عظيماً؟»

قال: «الأمر يعود لك. حسناً سأخبرهم بذلك. لكن هل معك نقود؟».

«كما أصريّت عليّ من قبل، معي نقود تكفي لستة أشهر».

«سأعمل على أن تحصل على جواز سفر ورخصة قيادة باسمك الجديد».

قلت: «لا بد أن هذا شيئاً غير قانوني».

«وهل يقلقك هذا؟».

«لا. فأنا لست ذلك الرجل الجيد دائماً، لكني أميل لقول الصدق في الأمور التافهة».

«هذا أقل شيء يمكن عمله يارجل. إنك من بين القلائل من البشر الذين سبقوك إلى هذه العملية. إنك مختبر متنقل، تجربة. لقد أصبحت تتجاوز الخير والشر الآن».

قلت: «حسناً. إن المنظرّين في مسألة الهوية سينشغلون في هذه المسألة».

لمس كتفي وقال: «عليك أن تضاجع امرأة. إنه يعمل، أليس كذلك ـ ذكرك؟»

«لا يمكنني أن أخبرك كم هو رائع أن لا تبوّل في جميع الاتجاهات أو تبول على حذائك الجديد. ما إن يحدث معي انتصاب سأتصل بك».

«في أول مرّة مارست فيها الجنس بجسدي الجديد عاد كل شيء إلى طبيعته. كنت مع فتاة روسية. وكانت تصرخ كالخنزير».

«حقاً؟».

«في تلك الليلة عرفت أن الأمر كان يستحق ذلك. لقد انتهت جميع تلك السنوات، يوماً بعد يوم، وأنا أراقب زوجتي وهي تموت. كان ذلك انتقالاً إلى المجد».

«لكن زوجتي حيّة. أرجو ألا تموت في غيابي».

فقال: «لا بأس أن لا تكون مخلصاً، فليس أنت من يقوم بذلك».

تحدثنا قليلاً، لكني كنت أشعر بعدم الارتياح وظللت في حالة من الترقّب والتوجس. قلت له إني أريد أن أخرج لأتمشى، وأن أحرّك مؤخرتي الجديدة «أتباهى بها». قال رالف إنه فعل الشيء ذاته. وقال إنه سيدعني أمضي في حياتي الجديدة حالما يمكنه ذلك. إذ علينا أولاً أن نذهب ونشتري بعض الحاجيات. فقد أحضر رالف لي بدلة وقميصاً وملابس داخلية وحذاء إلى المستشفى، لكني كنت أحتاج إلى المزيد.

قلت: «يبدو أن ابني لم يكن يحتاج إلا إلى بنطال جينز وقمصان تيشيرت ونظارات شمسية، وإلا فإني لا أعرف ماذا يلبس ابن الخامسة والعشرين».

قال: «سأساعدك. فأنا لا أعرف إلا من هم في الخامسة والعشرين من العمر».

أخذت صوراً لجواز سفري الجديد، ثم أخذني رالف إلى مخزن كبير. وفي كل مرة كنت أرى فيها نفسي في مرآة غرفة تغيير الملابس، كنت أظن أن غريباً يقف أمامي. كانت قدماي تبعدان

بمسافة غير ضرورية عن خصري. وكنت في الآونة الأخيرة أجد صعوبة في ارتداء جواربي، لكني كنت أعرف أبعاد جسدي قبل ذلك. كنت أعرف دائماً أين أجد بيضتي.

ارتديت بنطالاً أسود، وقميصاً أبيض ومعطفاً واقياً من المطر. لا شيء على الموضة أو يدعو إلى التباهي. لم تكن لديّ رغبة في أن أبرز نفسي. وأيّ نفس سأقوم بإبرازها؟ الشيء الوحيد الذي اشتريته، الذي كنت أتوق إلى شرائه دائماً، لكني لم أحصل عليه مطلقاً، هو بنطال جلدي ضيق. ولو كانت زوجتي وأطفالي هنا لفزعوا وأصيبوا بالهستيريا.

تركني رالف وذهب ليتدرب على مسرحية. كان مشغولاً. كان سعيداً بي وبنفسه، لكنه أنجز مهمته. وكان يريد أن يواصل حياته الجديدة.

عندما كنت أحدّق في نفسي بالمرآة مرة أخرى، محاولاً أن أتعود على جسدي الجديد، أدركت أن شعري كان طويلاً بعض الشيء. أياً كنت فلم يكن يناسبني. يجب أن أعدّ نفسي على النحو الذي أرغبه.

كان هناك صالون لتصفيف الشعر بالقرب من منزلي، الذي كنت أمرّ من أمامه في معظم الأيام منذ سنوات عديدة، لكني كنت أفتقر إلى الشجاعة للدخول إليه. كان زبائنه من الشبان، وفتيات عاريات البطون ذوات سرر مثقوبة، وكانت الضوضاء فيه تثير فزعي. الآن، وبينما الفتاة تجزّ شعري السميك وتتكلم، راح رأسي يعجّ بأشياء وأسئلة عديدة مثيرة ومدهشة. لقد وافقت بسرعة على أن أصبح الجسد الجديد كي لا أتردد. فمنذ انتهاء العملية غمرني شعور بالبهجة. فالفرصة الثانية هذه، هذا التنفيس، جعلتني أشعر بأني موفور الصحة وسعيد لأني ما أزال حيّاً. فالشيخوخة والمرض يستنزفان كل طاقتك، لكنك لا تدرك مدى الطاقة التي تفقدها، وكيف يموت لديك الاستعداد العقلي.

كان الشيء الذي لم أكن أعرفه، والذي سرعان ما سأتبينه، هو كيف كان الأمر سيبدو عندما تعود شاباً من جديد وتكتسي جسداً جديداً. وقد وجدت متعة في اختبار شخصيتي الجديدة عند مصفّفة الشعر، وأنا أشكّل نفسي. قلت لها إني عازب، وقد عشت وتربيت في غرب لندن، وأدرس علم النفس والفلسفة، وأعمل في المطاعم والحانات، وأفكّر الآن بما سأفعله.

«بماذا تفكر؟» سألت.

قلت لها إني أنوي السفر، لأني سئمت من لندن وأرغب في السفر والابتعاد عنها. وسوف لن أبقى في المدينة إلا بضعة أيام أخرى. وفيما كنت أتكلم كان يعتريني إحساس بالاندفاع أو بطاقة قوية في داخلي، لكن نحو شيء لم أكن أعرف ماهيته، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عنه.

عندما خرجت من صالون مصففة الشعر، رأيت زوجتي في الطرف الآخر من الشارع وهي تسحب عربة تسوّقها ذات العجلات. بدت أكثر تعباً وأشد ضعفاً من الصورة العقلية التي كنت قد رسمتها عنها. أو لعلي كنت أعود إلى رأي الشبان بأن المسنين هم جنس يشبه الواحد منهم الآخر. ربما كنت بحاجة لأن يذكّرني أحدهم بأن العمر ليس مرضاً في حد ذاته.

تذكرت عندما كنت أتحدث معها في السرير في الأسبوع الماضي. كنت شبه نائم، وكانت عين واحدة مفتوحة. كنت أرى جزءا واحداً فقط من حنجرتها ورقبتها وكتفها، وكنت أحدّق في بشرتها وأقول لنفسي إني لم أر شيئاً أجمل أو أكثر أهمية منها.

نظرت عبر الشارع. تجمّدت في مكاني. وبالطبع رمقتني هي بعينيها لكنها لم تعرفني. وواصلت سيرها.

وبما أني أصبحت رجلاً خفياً بمعنى من المعاني، وأعرف كل شيء عن الآخرين، فقد كان بوسعي أن أتجسّس على أولئك الذين أحبّهم، بل حتى أن استخدمهم وأسخر منهم. كانت وحدة بغيضة لمت نفسي عليها. ومع ذلك فإن ستة أشهر تعتبر مدة ضئيلة جداً في

مسيرة الحياة. ما الهدف من شبابي الجديد؟ فقد عشت حياة داخلية حائرة ومؤلمة على نحو غير ضروري، لكن بخلاف رالف لم أكن أشعر بأني لم أحقق شيئاً، ولم أكن أتمنى أن أكون عازف كمان، أو مستكشفاً ريادياً أو أن أتعلّم التانغو. كان أمامي كم وافر من المشاريع التي بإمكاني أن أفعلها.

كانت حيرتي، كما أظن، تكمن في تجربة الشبان ممن غادروا البيت والمدرسة مؤخراً. فعندما كنت أدرّس الشباب الكتابة «الإبداعية»، كان القلق المفرط الذي كان ينتابهم في ما يتعلق ببنية النص يثير حيرتي. وعندما رأيت أنهم كانوا يشيرون إلى حياتهم وإلى عملهم فقط بدأت أفهمهم. كان البحث عن «تركيب النص» أشبه بطرح هذا السؤال: ماذا تريد أن تفعل؟ من تودّ أن تكون؟ وكان بوسعهم أن يأخذوا وقتهم ليكتشفوا. ولم أكن أسمح لنفسي أن أعيش مثل هذه التجربة وأنا في الخامسة والعشرين. ففي ذلك العمر كنت أتراوح بين الحركة الدائبة والشعور بالكآبة الموهنة.

وإذا أشارت لي رغبتي إلى اتجاه معيّن في هذا الوقت، كان عليّ أن اكتشف ما إذا كان يوجد، في الحقيقة، شيء يمكنني أن أجده. فربما كان يعيقني الطموح في حياتي السابقة إلى درجة كبيرة. ألم تكن احتياجاتي ضيّقة جداً، ومركّزة جداً؟ ربما لم تكن تكمن هذه المرّة في مسألة إيجاد شيء كبير، بل في الميل نحو القيام بالكثير من الأشياء الصغيرة. إلّا أني سأفعلها الآن بشكل مختلف، لكن لماذا أعتقد أني سأفعلها على نحو أفضل؟

في ذلك المساء غيّرت الفندق، لأني كنت أريد أن أقيم في فندق أصغر وأقل ازدحاماً. تناولت طعامي ثلاث مرات، ونمت مبكراً، فقد كنت ما أزال أعاني قليلاً من تأثير العملية.

كان اليوم التالي جميلاً، وصحوت وأنا في مزاج رائع. وإن كنت أفتقر إلى إحساس رالف في ما يتعلق بالهدف، فقد كنت أفتقر إلى الحماس. فأي شيء سأفعله كنت مستعداً للقيام به.

ها أنا أسير في الشارع، أشتري حاجياتي من أجل الرحلة التي قرّرت أخيراً أن أقوم بها، عندما أخذ شابان لوطيان في الثلاثينات من عمرهما يلوحان لي ويصيحان من الرصيف المقابل.

«مارك، مارك!» راحا يناديانني مباشرة. «أنت! كيف حالك! لقد اشتقنا إليك!».

أخذت أتطلع حولي. لم يكن هناك أحد آخر يمكن أن يشيرا إليه. لعل بنطالي الجلدي أحدث تأثيراً على الناس. لكن الأمر كان أكثر من ذلك: فقد بدأ الشابان يشقان طريقهما نحوي عبر السيارات، وذراعا كلّ منهما ممدودتان. فكّرت في أن أهرب ـ خطر لي أن أتظاهر بأني أسير مهرولاً، لكنهما كانا قد اقتربا مني كثيراً. ولم يكن بوسعي إلا أن أواجههما وهما يلقيان عليّ تحية حارة. بل عانقاني كلاهما في واقع الأمر.

لحسن الحظ، لم يتوقفا عن الكلام، وكاد حديثهما كله ينحصر حول نفسيهما. وعندما أعلمتهما أني على وشك الذهاب في إجازة، قالا إنهما سيسافران كذلك مع بعض الأصدقاء، فنان وراقصين.

قالا: «لقد تغيرت لهجتك أيضاً. أصبحت لهجة بريطانية ثقيلة».

«إنها لندن ياعزيزي. لقد أصبحت رجلاً جديداً الآن»، قلت مفسراً، «إعادة اختراع».

«يسرنا سماع ذلك».

فهمت منهما أننا عندما التقينا آخر مرة في نيويورك لم تكن حالتي العقلية على ما يرام، لذلك أبديا سرورهما لرؤيتهما إياي وأنا أتسوّق في لندن. إذ كانا هما وعدد من الأصدقاء قلقين عليّ.

لقد نجوت من هذه الورطة، وسرعان ما ودعتهما. قبّلاني وعانقاني.

وأضافا قائلين: «إنك تبدو في حالة جيّدة»، ثم أضافا: «ألم تعد تعمل عارضاً للأزياء؟».

«ليس الآن»، قلت.

قال أحدهما: «لكنك لا تمارس العمل الآخر ذلك من أجل المال؟»

«أوه، ليس الآن».

«لم تكن تحبه».

«نعم، نعم»، قلت.

«للأسف إن فكرة فرقة الذكور لم تنجح، خاصة بعد أن جرّبت تلك الأغنية الغريبة».

«في رأيي إن الأوضاع غير مستقرة».

«هل تذهب معنا لنشرب ـ عصير البرتقال بالطبع؟ لم لا؟».

«نعم، نعم»، قال الآخر. «لنذهب ونتحدث في مكان ما».

قلت: «آسف، أنا في عجلة من أمري»، ثم قلت وأنا أبتعد، «لقد تأخرت على طبيبي النفسي. قال لي إني بحاجة إلى فترة أطول من المعالجة».

«طاب وقتك».

خابرت رالف على الفور.

قال: «هل حدث معك انتصاب؟».

ألححت على رؤيته. كان يتدرّب على مسرحية. طلب مني أن أذهب إلى مطعم الكلية خلال فترة الاستراحة وأنتظره هناك. عندما جاء بدا مشغول البال بعد أن تجادل مع أوفيليا. لم أكترث لذلك. أخبرته بما حدث لي في الشارع.

فقال بشيء من القلق: «يمكن أن يحدث معك ذلك. أما أنا فلم يحدث معي شيء من هذا القبيل، مع أني أشعر بأن الناس سيتعرفون عليّ عندما أقوم بتأدية دور هاملت».

«ماذا يحدث؟ ألا يجرون تحريات أولاً؟».

قال: «طبعاً. لكن العالم أضحى مكاناً صغيراً الآن. فهذان الشابان هما من لوس أنجلوس».

«مارك. هذا اسمه. نادياني بهذا الاسم».

«كيف يمكن للمرء أن يتوقع أن يكون لديه أصدقاء في كينسينجتون؟».

«أليس من الممكن أن الشرطة تلاحقه في مكان ما؟».

هزّ رأسه وقال بثقة: «لن يحدث ذلك معك ثانية. إن فرص تكرار مثل هذا الأمر قليلة من الناحية الإحصائية».

«هل حدثت أمور غريبة أخرى».

«مثل ماذا؟» لم يشأ أن يسمع، لكنه كان مضطراً لأن يفعل ذلك.

«قل لي أولاً، كيف مات، أقصد جسدي، الرجل الذي أتقمصه؟».

تردّد رالف: «لماذا تريد أن تعرف؟».

«لماذا، ألا يُسمح لك بأن تخبرني؟».

«إنه مجال جديد».

واصلت كلامي: «كانت تنتابني مثل هذه المشاعر أو الأحاسيس وأنا في السرير. عندما كنت في جسدي القديم، وخاصة عندما بدأت أتقدم في السن، أو عندما كنت أتأمّل، كنت أشعر أحياناً أن حدود عقلي وجسدي قد توسعت. كنت أشعر، على نحو غامض تقريباً، بأني جزء من الآخرين، «محصلة الواحد».

«حقاً؟».

«أما الآن فقد أصبح شيئاً مختلفاً. أشعر كما لو أن شبحاً أو ظلّ روح يقبع في داخلي. يمكنني أن أحسّ بأشياء، ربما كانت ذكريات الرجل الذي كان هنا في البداية. ربما كان للجسد المادي

روح. هذه هي عبارة فرويد التي قد تنطبق هنا: إنه يدعوها الأنا الجسدي، على ما أظن».

«ألم يفت الآوان؟ فأنا ممثل، ولست صوفياً».

لاحظت عدم إبداء الاحترام لرالف. أصبحت الآن أحمل شخصاً في الخامسة والعشرين من العمر لا شخص مؤلف بارز. ولن تمضي فترة طويلة حتى أبدأ أتكبد الخسائر الناجمة عن اكتساب شباب لفترة طويلة.

قلت: «يجب أن أعرف المزيد عن جسدي. فقد كانوا يرون وجه مارك عندما ينظرون إليّ. إن ما يرونه جزئياً هو تجربة طفولته، لا تجربتي أو تجربتك».

«أتريد أن تعرف لماذا مات؟ سأخبرك يا ليو، واجه الأمر، إنها الحقيقة ويجب أن تعرفها. لقد مات رجلك بطريقة مريعة».

«عما تتحدث؟».

«إن الموت في الشباب ليس شيئاً لطيفاً. ولا يسبب شعوراً بالانفراج أو الراحة. فالعالم كله ينطوي على الاستغلال. فكلنا يعرف أن الثياب التي نرتديها، والطعام الذي نتناوله، مشحون بجهد فلاحي العالم الثالث».

«رالف، أرجو ألا أتعرّض لمحنة هذا الرجل».

«من المؤكد أن الغموض كان يشوب رجلك هذا، ولم أدعهم يعطونك سلعة رديئة. على أية حال، ليس من الممكن أن تذهب وتقتل شخصاً بسبب جسده فقط. فلا بد أن عائلته والشرطة والصحافة، جميعهم سيبحثون عنه. يجب «تنقية» الجسد، ويجب تهيئته بعد ذلك لاستخدامه من جديد من قبل طبيب يعرف ماذا يفعل. إنها عملية طويلة ومعقّدة. لا يمكنك فقط أن تدخل دماغاً في أيّ جمجمة كانت ـ حمداً لله ـ تخيّل عندها المشهد الغريب والشاذ الذي سيكون أمامنا».

قلت: «إذا تمت «تنقيته»، أظن أنه يجب على الأقل أن تخبرني بما تعرفه. أظن أنه كان شاذاً جنسياً».

«ما الذي جعله يكون في مثل هذه الحالة الجيدة؟ هل لديك اعتراض على الشذوذ الجنسي؟».

«ليس من حيث المبدأ. لم أحظ بالوقت الكافي لاستيعاب الأمر. فأنا ما أزال في بداية الطريق. يجب أن أعرف ماذا يمكن أن يعني كلّ هذا».

قال رالف: «حسب معرفتي، فقد كان معتوهاً، لكنه لم يكن مدمناً على المخدرات. أظن أنه انتحر بعد أن تناول السّم. لقد عالجوا رئتيه. فقد بحثت في حالته من أجلك يا آدم، أقصد ليو. لقد طلبت منهم أن يعطوك أفضل شيء. كانت بعض تلك النساء في هيئة رائعة».

«قلت لك إني لم أكن مستعداً لأن أكون امرأة. بل حتى أني لم أعتد على أن أكون رجلاً».

«إذن كان ذلك اختيارك. لقد كان رجلك مصاباً بشيء يدعى الكآبة السريرية. من الواضح أن الكثير من الشباب يعانون من ذلك. ولا يستطيعون الحصول على المساعدة التي يحتاجونها. حتى أنهم لا يبرؤون منها على المدى البعيد. فمضادات الاكتئاب والعلاج النفسي لا تفيد كلها على الإطلاق. أظن أنهم لن يكونوا أشخاصاً فاعلين مثلنا ويفوزون بالحياة. أرى أنه من الأفضل التخلص منهم جميعهم وأن ندع الأصحاء يعيشون».

«أتعني العيش في أجساد المنبوذين؟ المهملين، الفاشلين؟».

«صحيح».

«أفهم ما ترمي إليه. قد يكون «مارك» عانى في عقله. قد لا يكون عاش حياة «ناجحة»، لكن يبدو أنه كان محبوباً من أصدقائه. لا بد أن أمه تريد أن تراه».

«ماذا تقول؟».

«ماذا لو أنني -».

قال: «لا يخطر ببالك أن تثير هذا الأمر أمام أمه. فلا بد أنها ستجن إذا دخلت إلى هناك بذلك الوجه. أسرته كلها! سيظنون أنهم يرون شبحاً لعيناً».

قلت: «لن أفعل ذلك. لأني لا أعرف أين يقيمون. لا أقصد هذا تماماً».

قال رالف: «لقد أصابت الرجل الذي أتقمصه صاعقة عندما كان ثملاً مستلقياً تحت شجرة. لا يوجد ثمة شيء غير عادي حول رجلي، أحمد الله».

كانت هناك معلومات كثيرة أريد أن أعرفها من رالف. كان عليّ أن أتعايش مع عواقب ما قمت به. مع أني لا أعرف ما هي تلك العواقب.

قال رالف: «ستأتي وتراني وأنا أمثّل دور هاملت؟»

«إذا أتيت لتراني أمثّل دور دون جيوفاني».

«نعم؟ هل هذا ما ستفعله؟ يمكنني أن أراك وأنت تؤدي دور دون. هل ضاجعت؟».

«لا».

أعطاني جواز سفري الجديد ورخصة قيادتي.

«اسمع يا رالف»، قلت ونحن نفترق، «يجب أن تعرف أني ممتن لك كثيراً لأنك أتحت لي هذه الفرصة. فلم يحدث في حياتي شيء غريب كهذا».

قال: «جيد. اذهب الآن وتمشَّ وهدئ أعصابك».

لاحظت أني بدأت أتعوّد على جسدي، بل حتى أنني بدأت أشعر بالارتياح فيه الآن. وبدت خطواتي واسعة طويلة، وملمس يديّ ووجهي طبيعياً. لم أعد أتوقع ردّ فعل مختلفاً من أطرافي. كان هناك شيء آخر.

فللمرة الأولى منذ سنوات عديدة بدأ جسدي يشعر بأنه حسيّ ومفعم بالشوق والحنين؛ إذ كانت تعشش فيّ نار داخلية دافئة، امتد لهيبها إلى الآخرين ـ إلى أي شخص تقريباً. نسيت القدر الذي قد تكون فيه الرغبة عنيدة وعشوائية. وسواء كان هذا بسبب الشخص الذي كان يكتسي هذا اللحم، أم هو الشباب ذاته، فقد غمرني شعور بالمتعة.

منذ بداية زواجنا، قرّرت أن أكون مخلصاً لمارغوت، دون أن تكون لديّ بالطبع فكرة عن صعوبة ذلك. ولعله من الخطأ أن عدم معرفة المرء بالأشياء الإيروتيكية والرغبة الدنيوية تساعد في قتل الرغبة. إذ يمكن للرغبة أن تجد أصغر فجوة تتسلل منها، ومن الجحيم العيش في حالة عزوبية مفروضة مع شخص ترغب فيه يصبح التواصل معه ضرباً من الألفة التي يدمن عليها المرء. وقد تعلّمت أن السعادة الجنسية من النوع الذي أتخيّله، الرضاء الدائم والعميق ـ الخيال الرومانسي الذي ينومنا مغناطيسياً ـ أمر مستحيل تماماً مثل الفكرة التي تقول بأنه يمكنك أن تحصل على كلّ شيء تريده من شخص واحد. لكن البديل ـ الحبيبات، العشيقات، العاهرات ـ يبدو مدمراً للغاية، وشديد التقلب. فالتغلّب على الشعور بالمرارة والاستياء، بالإضافة إلى حسد الشباب الجنسي، يتطلب قدراً من النضج يمكنني أن أستجمعه، كما يفعل الإدراك بأنك يجب أن تجد السعادة بالرغم من الحياة. وقد ساعدني البديل المتسلسل: الأملاك، الأطفال، العمل، جمع أوراق الأشجار في الحديقة، في إبعاد غضب الفشل. وأصبح المرض أيضاً عاملاً مساعداً. فقد أصبحت مصاباً بالرهاب من الآخرين إلى درجة أنه لم يعد بوسعي أن أدع غريباً يقص شعري. وكان على ابنتي أن تفعل ذلك. هكذا أنقذت حياتي وعقلي دون أن أضطر إلى قتل أي شخص.

وجدت الآن نفسي أتطلع إلى الشابات، بل وحتى إلى الشبان السائرين في الشارع والجالسين في المقاهي. وفيما كنت أهبط في المصعد الكهربائي، ابتسمت لي امرأة وهي صاعدة وأومأت لي

فلحقتها إلى الشارع. سأتبع أهوائي هذا المرّة. اقتربت منها بشجاعة لم تكن تتملكني عندما كنت شاباً. كانت رغبتي عنيفة وغريبة جداً وقد واجهتها كنوع من الفوضى التي أجد صعوبة في احتوائها أو التمتع بها. فقد كانت رغبتي في شخص تعني أنه يجب أن أدخل في مفاوضات حادة وقاسية مع نفسي.

سألت الفتاة أن تشاركني في احتساء كأس. ثم أخذنا نتمشى في الحديقة قبل أن نعود إلى غرفتها في فندق رخيص. ثم تناولنا الطعام، وشاهدنا فيلماً وعدنا إلى غرفتها. لقد أحبّت جسدي، لكنها لم تحصل على كفايتها. كانت متعتها تزيد على متعتي بمراحل. راح أحدنا ينظر إلى جسد الآخر بإعجاب ـ جسدان فعلا ما يمكن لأي جسدين محمومين أن يفعلاه، عدّة مرات، قبل أن يفترقا إلى الأبد. إنه مثال رائع عن الحبّ غير الشخصي، السخي، والأناني على حد سواء. كان يمكن لأحدنا أن يتخيّل الآخر، يداعب أحدنا جسد الآخر، يعيش أحدنا في عقل الآخر. أصبح كلانا آلة تصنع الخلاعة من داخلنا. لقد تمنّيت أن تتكرر مثل هذه المناسبات. كم يتداخل الوفاء في الحبّ أحياناً! كيف يمكن مقارنة النقاء والفكر مع ممارسة الجنس السامي؟

كان أحدنا مستلقياً على ذراع الآخر، وعندما غفت، قبّلتها وقلت: «إلى اللقاء، من كنتِ تكونين» وتسللت عند الفجر، ورحت أتمشى في الشوارع مدة ساعتين، وخطر لي كم كانت هذه الطريقة في العيش رائعة.

4

في صباح اليوم التالي استقليت القطار وتوجهت إلى باريس. وضعت حقيبة ظهري الجديدة على الرفّ فوقي. وقبل أن نصل إلى دوفر ساعدت الناس في حمل حقائبهم الثقيلة، وتناولت طعام الفطور مرتين، وقرأت الصحف بلغتين. وخلال الفترة المتبقية من الرحلة، رحت أدرس الأدلة السياحية.

قبل أن أصبح جسداً جديداً ببضعة أسابيع، مررت في ما قد يدعى بحالة عقلية «تجريبية». فبعد أن أنهيت كتابة رواية «*فات الآوان*»، بدأت أحس بالفشل ككاتب. قد تزداد مهارتي لكني لن أصبح كاتباً أفضل. ولم أكن أبالي إن كان العمل سيزداد سوءاً إن تمكنت من إيجاد سبل مثيرة تجعل الأمور أكثر صعوبة. فالضرورة والمعاصرة تعوضان عن أيّ قدر من البراعة، في الأدب كما في الحبّ. توقفت عن العمل وبدأت أرسم. ورحت ألتقط صوراً وأتحدث مع أناس كنت أهرب منهم عادة. لقد صممت على أن أرى حقيقة ما يحدث، بدلاً من أن أتوارى في غرفتي. ورغم كلّ هذه الجهود لم يكن ثمة شكّ بأني بدأت أصبح أكثر عزلة، مثل عزلة الحرفة التي ارتبطت بها، والتي لم يعد بوسعي الفكاك منها.

ثمة أمور أكثر إلحاحاً من الألم المتواصل، فقد كانت تعتريني آلام جسدية ظننت أني سأبرأ منها. وقد كتب فلانيري أوكونور «لا رفيق مع الألم». ربما كنت أستعد للموت دون أن أعي ذلك، وأتذكّر أني عندما بدأت أستعد لوفاة والديّ بدأت أدرك كيف أصبح موتي

جزءاً هاماً من حياتي. فعندما كنت شاباً وفي حالة مادية سيئة، كنت أتساءل باستمرار: لو كنت أملك قدراً كافياً من المال لفعلت ذلك؟ وعندما أصبح لديّ المال لم أتوقف عن التساؤل: هل لديّ الوقت الكافي للقيام بهذا، أو هل هذا حقاً ما أريد أن أفعله في الأيام المتبقية من حياتي؟

إن استحضاري لصورة طبيعية حية، بالإضافة إلى الفضول العقلي يجعلني أبدو مفعماً بالنشاط. ففي هذا التجسيد سأزور جميع الأماكن وأرى كلّ شيء.

وعندما أصبح لديّ أطفال، بدأت أفكر بطفولتي وبوالديّ، أما الآن فقد جعلني هذا التحول أفكّر بنوع الشباب الذي عشته. فأنا لم أسافر كثيراً. إذ انهمكت في المسرح كثيراً، أعمل وحدي، أقرأ مخطوطات، أقوم بإدارة شباك التذاكر، وأقوم على خدمة المخرجين الاستبداديين. أما ما تبقى من الوقت فقد كانت لديّ شؤون معقّدة مأساوية، وكنت بالإضافة إلى كلّ ذلك أحاول أن أكتب. لقد أضعت الكثير من المتع من أجل مهنتي. وكنت أجد أحياناً أن التأجيل والانضباط شيئان لايطاقان. وكنت أندفع إلى الخارج وأفقد صوابي، ثم أعود إلى غرفتي وأمكث فيها فترات طويلة - يمكنني أن أقول الآن إني كنت أمكث فيها فترات طويلة جداً. لكن تلك السنوات من التعود والتكرار أفادتني كثيراً: فقد اكتسبت خبرة في الكتابة لا تقدر بثمن، ولم أكتسب خبرة في الصعوبات العملية فقط، بل في الأهوال والمحظورات التي تواجه المرء عندما يحاول أن يصبح فناناً أيضاً.

لم تكن الأمور التي تثيرني آنذاك نقية، بل كانت دائماً عبارة عن هواجس وقلق. أما في هذه الحياة الثانية فقد رحت أتساءل إن كنت ما أزال مقيداً وخائفاً على مستقبلي، وأركّز بقوة على النجاح الذي كنت أتوق إليه، وكنت عازماً على أن أثبت قدمي. ولم يعد السفر إلى أنحاء أوروبا يعنيني كثيراً.

هل أنا آسف لذلك الآن، أم أني كنت أتمنى أن يكون غير ذلك؟ على الأقل كان ينتابني إحساس بأنه لا يمكن أن تكون هناك حياة بدون حماقة، تردد، تصدّع، أو نزاع لا يحتمل. إذ إننا نمثّل أخطاءنا، أعراضنا، انهياراتنا.

أما أكثر الأشياء التي افتقدتها في حياتي الجديدة، فهي عدم توافر فرصة مناقشة العواقب التي قد تنجم عن أن أصبح جسداً جديداً. راودتني الشكوك بأن رالف هو من كان مهتماً بالمضي في هذا الأمر. ولعل تغييرات أخرى ـ مثل شد الوجه ـ قد تعطي نتائج أفضل للأشخاص الذين لا يحملون أفكاراً ونظريات عن الأصالة أو «الطبيعي»، الأشخاص الذين لم يكن ينتابهم القلق على حساب المتع الواضحة التي يتيحها.

لقد كانت المتع هي التي أسعى وراءها. فسرعان ما وجدت نفسي أنطلق إلى باريس، ثم توجهت إلى أمستردام وبرلين وفيينا. زرت كنائس ومتاحف إيطاليا. ولم تمض فترة طويلة حتى ملأت نفسي بالأجساد المُهانة والمُنتهكة من ذروة الجماع المعلقة على الجدران، والمدافن المليئة بالعظام البالية. وكنت في معظم الأيام أستيقظ في مكان مختلف. فقد سافرت بالقطار وبالحافلة، وبأكثر الوسائل بطئاً. وكنت أحياناً أسير عبر الجبال أو الشواطئ أو الحقول، أو كنت أنزل من القطار ما أن أرى مشهداً جميلاً من النافذة. فإذا أعجبتني حافلة ـ الطريق، الأفكار التي تخطر ببالي، عرض المقعد، أو جملة في كتاب أقرأه ـ كنت أظل جالساً هناك حتى نهاية الخطّ. فلم أكن على عجلة من أمري.

أقمت في فنادق رخيصة، وفي بيوت ونزل للشباب. كان معي نقود، لكني لم أكن أريد أن أكون ثرياً. عندما كنت شاباً كنت أريد ذلك ـ كمقياس للنجاح وللتعبير عن هروبي من طفولتي. أما الآن فقد بدوت مقيداً بشدة بالاهتمام بالأثاث.

لم أكن أتحدث إلا إلى غرباء، ولأول مرة منذ سنوات صرت

أتخذ أصدقاء بسهولة. كنت ألتقي بالناس في المقاهي والمتاحف والنوادي، وكنت أزورهم في بيوتهم عندما كان يتاح لي ذلك. فإذا كنت كثير التدقيق، وصعب المزاج في اختيار الأصدقاء في الماضي، فقد أصبحت الآن أبقى مع أي شخص يرضى بي، لأرى كيف يعيش هؤلاء الناس. وبخلاف معظم الشباب أصبحت أهتم بأشخاص من جميع الأعمار. وبدأت أتردد على بيت شاب هولندي يقاربني في السن، وكان الأمر ينتهي دائماً بالحديث مع والديه في عطل نهاية الأسبوع. وكنت أنسجم مع الأمهات لأني كنت أهتم بالأطفال وأفهمهم. فلم تكن الأمهات يتوقفن عن الحديث عن الأطفال، لكني علمت أنهن كنّ يتحدّثن عن أنفسهن أيضاً، وهذا ما كان يثير شجوني.

وتعلمت، على الأقل، كيف أعتني بنفسي. إذ أصبح بوسعي أن أهرب من أي شخص ممل. كان الناس أكثر كرماً مما كنت ألاحظ. فإذا كان بوسعك أن تستمع، فإنهم كانوا يحبون الكلام. ولعلّ طموحي وشهرتي القليلة منذ نعومة أظفاري، كانتا تضعان عوائق بيني وبين الآخرين.

كانت أيامي حافلة بالنشاط في كلّ مدينة أزورها. كان بإمكاني أن أشرب، وأن أمارس الجنس مع فتيات أتعرف عليهن، أو مع أيّ مومس يروق لي جسدها. وكنت أزور المعارض، أقف في صف طويل لأحجز مقاعد رخيصة في المسرح أو في الأوبرا، أو كنت أقرأ أو أمشي فقط. ففي برلين الشرقية السابقة، كان كلّ ما فعلته هو أن أجوب الشوارع وألتقط الصور. وفي إحدى حانات باريس التقيت بشاب جزائري كان يعمل عارض أزياء بين حين وآخر. فلم يكن عارضو الأزياء الذكور يكسبون ذات القدر من المال الذي تكسبه العارضات، لذلك كان لدى معظمهم أعمال أخرى. وتدّبر لي صديقي فرصة لأن أقوم بعرض أزياء خلال «أسبوع الأزياء»، وهكذا أخذت دوري في العرض في الممشى الضيق، فيما كانت أضواء الكاميرات تبرق وتلمع، ويخربش الصحفيون البلداء في

دفاترهم. هل كانت الثياب أم الأجساد هي التي كانوا ينظرون إليها؟

أما وراء الكواليس فكنت ترى عدداً كبيراً من الفتيات والشبان نصف العراة، والمشرفين على الثياب، والمصممين، بالإضافة إلى عدد هائل من المساعدين.

لقد وجدت متعة كبيرة في كلّ ذلك، وبعد أن تحدثت إلى المصمم، الذي كنت أعرفه قليلاً في جسدي السابق، عرض عليّ عملاً في أحد محلاته، لكني رفضت عرضه. مع ذلك، فقد سألته إن كان عن طريق المصادفة، قد قرأ أياً من كتبي ـ «كتب آدم» ـ أو شاهد أياً من مسرحياتي أو أفلامي. فقال إنه إذا كان قد فعل ذلك فهو لا يتذكر. إذ لم يكن لديه وقت يضيعه في التفاهات الثقافية. فصنع سروال جميل أكثر أهمية بالنسبة له. وقال إني «أعجبته» ـ أنا آدم ـ مع أنه كان يجدني خجولاً في بعض الأحيان. ولدهشتي قال إنه يحسدني لأن النساء ينجذبن إليّ.

وفي اليوم التالي عرض عليّ صاحبي الجديد أن أرافقه لشراء بعض الأشياء. فقلت له إني أملك مبلغاً قليلاً من المال كنت قد ورثته وأريد أن أنفقه، وكان يعرف أماكن جيدة للتسوّق. وفي ثيابنا الجديدة التي كانت على الموضة، بدأنا نرتاد حانات لنتفرج على الآخرين كما كنا نتمتع بتطلعهم إلينا، أما أولئك الذين لم يكونوا ينظرون إلينا إلّا بوجل واحتقار فكانوا يعتبروننا من ذوي البشرة الداكنة.

لم أمكث هناك طويلاً. لم أكن مثل هؤلاء الفتيان. ما كنت أريد أن أشغل مكاناً في عالم المال. وذات يوم فكّرت بالذهاب إلى روما. وبينما كنت أحضر محاضرة في روما غفوت وأنا جالس في أحد المقاعد الأمامية مرتدياً بدلتي الكتانية الجديدة، اقترب مني كاتب شاذ يكتب سيرة أحد الكتاب المهمين، وانحنى فوقي كثيراً، وسألني أن نخرج معاً ونحتسي كأساً. عند العشاء، قال هذا الكاتب البريطاني الفاشل إنه يرغب في أن أعمل مساعداً له فوافقت لكني

حرصت على ألا أصبح عشيقاً له. فقال إن كلّ ما يصبو إليه هو أن يلعق أذنيّ. قلت في نفسي: لماذا لا أشاركه بهاتين الأذنين الجميلتين؟ فهما ليستا لي، بل ملكاً عاماً. أغمضت عينيّ وتركت لسانه الهرِم يستمتع بأذنيّ. كان ذلك أشبه بحلزون يزحف فوق مقلة عينك.

كان بإمكاني أن أجرّب لأنني كنت أشعر أني في أمان. فإن كنت تعرف أنك ذاهب إلى البيت فبإمكانك أن تذهب إلى أيّ مكان أولاً. ذهبت معه، متخيلاً خزائن كتب بواجهات زجاجية طويلة، وطاولات مصقولة وأقرأ نسختي من كتاب *«مدخل رئيسي إلى جميع الأساطير»*، كما كنت أتصفّح كتب أبي عندما كنت مراهقاً. وهذا ما كنت أفعله في الحقيقة: «أتصفّح»، أو «أرعى» في العالم. كان العمل بالنسبة لي أقل أهمية مما كنت أتمنى. وكان ذلك يعني في معظم الأحيان أن أرتدي الثياب التي اشتراها لي لحضور حفلات وتناول وجبات العشاء. كنت تابعه الرخيص أو مصدر خلاعته ـ لكي يعرضني على أصدقائه ـ وعلى ملكاته الذكيات المثقفات اللاتي كنت أحبّ أن أتحدث أليهن. فعندما كنت شاباً لم أكن أجد متعة كبيرة في صحبة أقراني، بل كنت أحبّ أن أكون ولداً يحظى بالاحترام في المسرح، ويحيط بي رجال أكبر سناً.

لذلك أعجبتني هذه الرغبة في الحياة الإغريقية تلك، والمشكلة الوحيدة هي أن ربّ عملي لم يكن يدعني أبتعد عن ناظريه. فعندما كانت تتاح لي الفرصة لأن أقرأ في مكتبته، كنت أرى رأسه الأصلع يتحرّك إلى الأعلى والأسفل في الخارج، يحاول مراقبتي عبر النافذة من فوق صندوق غير مستو. لم يعد إعجابه بي سوى معاناة بالنسبة له، حتى بدأت أشعر مثل أميرة سجينة من قصص ألف ليلة وليلة. إن الجمال يجعل الناس يحلمون بالحب. وإذا لم تشأ أن تكون في حلم شخص آخر يجب عليك أن تبتعد.

حصلت على وظيفة صائد «زبائن» عند باب أحد الأندية الليلية في فيينا. وكنت أنحو إلى الإشارة إلى الجميلات والقبيحات بالقدر

نفسه، إلى أن ركلني مخبول في بطني. وبعد بضعة أيام، وبعد أن اصطحبني أحد معارفي إلى أحد الكازينوهات، وفيما كنت أقف في الخارج أدخّن سيكارة من شدة ضجري، أتساءل لماذا يحرص الناس على التخلص من مالهم، اقتربت مني إمرأة وقالت إنها لم ترفع عينيها عني. وقالت إنها معجبة بعينيّ، وتريد أن أضاجعها.

لم تكن متقدمة في السن. لا بد أني كنت أبدو مريباً. (لم أكن واثقاً دائماً إن كانت قسمات وجهي تعبّر عن مشاعري. ومع ذلك لم أكن مقتنعاً من قدرتي على الكذب).

قالت: «سأدفع لك».

«هل سبق لكِ ودفعتِ مبلغاً من المال لقاء ممارسة الحبّ؟»

هزّت رأسها. لم يكن اتفاقي مع ذاتي أن أرفض مثل هذه العروض. نظرت إليها ملياً وقلت لها إن أحداً لم يعرض عليّ صفقة أفضل من هذه.

«إذاً هيا بنا».

كان عندها سائق. اصطحبتني معها. جلست في المقعد الخلفي في السيارة، وقادتني في ظلام الليل إلى بقعة مجهولة.

كانت المرأة أمريكية وقد ورثت مالاً من والديها، وكانت تملك فيلّا متداعية بعض الشيء في منطقة خارج بيروجيا. وقد استأجرت عازف بيانو في الثمانينات من عمره ليعزف لنا سوناتات موزارت، فيما راحت هي ترسمني وأنا عارٍ وأطلّ على بساتين الزيتون. وقد استغرق رسم بعض اللوحات وقتاً أطول من اللازم. استمعت إليها لأيام عديدة، وكنت أجوب البيت مرتدياً الشورت وحذاء طويلاً يرتديه العمال، مدعياً أنه يمكنني أن أصلح الأشياء المعطوبة، رغم أن كلّ شيء في البيت كان يبدو في حالة جيدة. (هل يمكن أن يبدو الخراب نفسه فناً في إيطاليا فقط؟).

كانت عيناها الملاذ الذي كنت أعود إليه دائماً. كنت ما أزال

أحبّ أن يقع الناس في غرامي. ثمة لحظات في الحياة تدمن عليها، وهي اللحظات التي تتكرر كثيراً، لكنك تصاب بعد ذلك بالإحباط عندما لا تستطيع أن تمضي قدماً، عندما يبدأ الشيء الذي كنت تتوق إليه يشعرك بالضجر والسأم.

كان عملي الحقيقي في الليل، في غرفتها، حيث كانت، بعد أن تستغرق ساعات وهي تهيء نفسها لي، وتنتظرني حتى أقرع على بابها. كنت أزاول عملي بجدية كبيرة، أتدرب استعداداً لتلك اللحظات، وأتحمّم، وأتأمّل، لأكون أستاذاً فخوراً حتى درجة الإشباع. كم رحلة داخلية قمت بها، متظاهراً بأني راقص أو أني أتسلق صخرة. كان عملاً خطيراً، ذلك الجنس، لكن كالعادة كان الخوف والغموض يجعلانه إيروتيكياً. أما هي فكانت تمضي ساعات طويلة من الهدوء والسكينة الذهنية عندما نقضي وطرنا. وقد انتبهتُ إلى ذلك في وجهها وهي نائمة، في حالة من اليُمن والبركة. وكنت سعيداً، أنتظر بجانب السرير أقيس درجة حرارتها، ويدها مشتبكة في يدي. بعدها أغط في سبات عميق، وحيداً. كنت أستمد متعتي من متعتها. وبعد بضعة أسابيع طلبت مني أن أعيش معها في نيويورك إن كنت قد مللت الحياة في إيطاليا. فقد ملت هي، أما أنا فلا. كان بمقدوري أن أُشبع رغبتها، ولكن على حساب خيبة أملها فقط. ابتعدت بحذائي العالي عبر أشجار الزيتون. كانت عيناها مثبتتين في ظهري، لم تكن تعرف من هو عشيقها التالي.

كنت سعيداً بتوافر متسع من الوقت لي حتى أتجول في المدن، أستمع إلى الموسيقى، إذ كانت أكثر رغباتي الدفينة طوال عمري أن أضع السماعات على أذنيّ، خاصة كما كنت أفعل في جسدي السابق، حيث كنت أعاني من بعض الصمم. بدأت أرتاد النوادي وتعرفت على عدد من مقدمي الموسيقى فيها. لم أكن أكفّ عن التحدث عن الموسيقى. ولأقول الصدق كنت ألتقي بأناس أكثر إثارة للاهتمام عندما كنت في هيئتي السابقة.

لكني أحببت هذا التعدّد والتنوع في الحيوات. كنت أشعر

بالغبطة عندما أسمع عبارات التقدير والإعجاب بسلوكي ومظهري، وكنت أحبّ أن أسمع أحدهم يقول لي إني وسيم، جميل وأنيق. وبدأت أفهم ما كان يقصده رالف بعبارة «بداية جديدة بمعدات قديمة». فلديّ الذكاء والمال وشيء من النضج والطاقة الجسدية. أليس هذا هو الكمال الإنساني؟ لماذا لم يفكّر أحد من قبل في أن يجمعها معاً؟

ومثل الكثير من الأسوياء كان يثير اهتمامي قيام الشاذين جنسياً بمعاشرة مئات بل وحتى آلاف من الشركاء. فقد قال لي ذات مرة ممثل شاذ جنسياً كنت أعرفه: «في أي مكان أذهب إليه في العالم أعرف ما أريده بنظرة واحدة. فأنا مواطن لا أنتمي إلى مكان، أقيم في أرض المضاجعة». كنت أُعجب منذ زمن بما كنت أراه بأنه الحياة المبتكرة والتجريبية للشاذين جنسياً، وقدرتهم على المتعة. كانوا يعيدون اختراع الحبّ، يبقونه قريباً من الغريزة. أما الأسوياء فكانوا يلتزمون بالنموذج القديم، على الأقل في الوقت الحاضر، مع أن ذلك آخذ في التغيير. وأصبحت أرى في هيئتي الجديدة وجود الكثير من الأجساد المفتوحة بالقرب مني. وذات يوم مارست الجنس مع ستة أو سبعة طوال الليل والنهار. بالطبع فهذا شيء لاتريد أن تفعله غالباً، بل يمكنك أن تفعل ذلك مرة في العمر.

في سويسرا اصطحبتني امرأة كنت أتحدث إليها إلى إحدى الحانات، حيث تعرّفت على مجموعة من الشبان في أواخر العشرينات من عمرهم يعدون لتصوير فيلم عن الشباب الضعيف المتخاذل مثلهم. وقد ساعدتهم في نقل معداتهم وكنت مهتماً برؤية كيف يستخدمون الكاميرات الجديدة الخفيفة الوزن التي دفع أباؤهم ثمنها.

بدؤوا يصورون مشاهد طويلة من الحوار اليومي العادي. لم أكن ذلك الشخص الذي يؤمن بأن أفلام أندي وارهول يمكن أن تكون نموذجاً جيداً، لكني شجعتهم على تثبيت كاميراتهم وتصوير وجوه الأشخاص الذين يقومون بتصويرهم، ويطلبون منهم أن يتحدثوا

فيما جلست وراء الكاميرا، أوجه إليهم أسئلة عن طفولتهم. ثم أخذت هذه الأفلام إلى استوديو وجمعت بعضها، ووضعت لها موسيقى تصويرية. وكانت أفضل نسخة هي النسخة التي حذفت منها أصوات المتحدثين، وأبقيت على صوت الموسيقى. كانت الأفواه المتحركة الصامتة البعيدة ـ إذ كان أحدهم يحاول أن يكون مسموعاً، ولم يكن أحد يعيره أي اهتمام ـ مؤثرة إلى درجة غريبة. وعندما جاء دوري أمام الكاميرا دهنت نفسي بطلاء أبيض، ورسمت خطاً أسود في الوسط، وأطلقت عليها «قطعة الحمار الوحشي». وذات ليلة عرضنا الأفلام في أحد النوادي، ورقص الحمار الوحشي العاري على المسرح مع فرقة محلية.

كان شبان آخرون في الفريق يعملون في مخزن متداع، يتدربون على عروض فنية معاصرة. فأدخلت لهم بعض التعديلات المعقولة، رغم أن أحداً لم يلحظ الكثير منها. وشعرت بالانزعاج عندما وجدت نفسي أبدي اهتماماً بهم كمعلّم أو كأبّ، لأوّسع مداركهم بالجدية التي يمكن أن يظهروها. إذ لم يكونوا قد قرأوا كثيراً. فقد كانت هناك الكثير من المعارف الثقافية التي كنت أعتبرها بديهية، لكنهم لم يكونوا على اطلاع عليها. إذ لم يبدأ ابني في القراءة أو مشاهدة أفلام محترمة حتى كاد يبلغ العشرين من عمره، ولم يكن يدعنا نطلعه على هذه المتع، بل ترك ذلك لمعلمتة. وأذكر أني قلت مؤخراً في برنامج إذاعي أنا أعتبر أن القراءة هامة مثل أهمية تربية كلب البودل. وقد جعلني ذلك أصبح قارئاً نهماً. وكانت الهمسات والنغمات القدسية التي كان يشير إليها أبوايّ «بالأدب» و «بالدراسة» جعلتني أتساءل دائماً ماذا يمكن للمرء أن يفعل مع جسد أكثر من أن يلقمه بالمعلومات ويخرجها منه.

وفي مطلع التسعينات ذهبت إلى أحد النوادي لأشاهد فيلم الأمير، برفقة ابني ومعلمته في الجامعة، ديدي أوزورد، التي يبدو أنها كانت تدّرسه (في السرير). ورغم الوضع البائس وكونهم جميعهم عراة تقريباً سواي، ويتعاطون المخدرات، فقد كنت أحبّ أن

أتفرج عليهم جميعهم. أما الآن فقد بدأ أصدقائي الجدد يصطحبونني في معظم الأمسيات إلى النوادي. لكن سرعان ما اعتراني الملل، لذلك أعطوني حبة إكستاسي لأول مرة. ومع أني كنت قد دخّنت الحشيش وتعاطيت إل إس دي، وتعرفت على مدمنين، أو مدمني كوكائين، فقد كان الكحول المخدر الشائع في صفوف جيلي. إذ كان يبدو أفضل مخدر. ولم أفهم قط لماذا يريد أيّ كان أن يرقص الفالس مع تماسيح كريهة الرائحة وضارة.

وبدأت أشك إن كان يمر يوم لا يدخن فيه أحد أصدقائي الجدد أو يتناول نوعاً آخر من المنبهات. وكما كان يعرف أصدقائي فقد هبط عليّ «إكستاسي» وأردت أن أقدمه إلى رئيس الوزراء، وأضخّه في إمدادات المياه. وكنت آتي إلى البيت وبيدي حفنة منه كلّ يوم طوال أسبوعين. فهو الذي قادني إلى جسدي، وإلى أجساد الآخرين، إذا كان فيهم شخص حقيقي. لكني لا أعرف. وقد جعل حماسي هذا زملائي الجدد يسخرون مني. وتعلموا أن عقار الإكستاسي لم يكن العلاج، وأن آخر شيء يطلبه العالم هو مخدر آخر.

إلا أني بعد نقاء الثقافة وبدائلها، خيّل لي أني كنت ألجأ إلى شيء مهمل منبوذ: المتعة الجسدية الأساسية، نشوة الجسد، نشوة البشرة، نشوة الحركة، ونشوة المودّة التلقائية السريعة للآخرين. وكنت ضعيف البنية، هزيلاً، لا شخصاً يدرك قوته، وكنت أجد دائماً أن التحدث عن أكثر الأشياء حميمية أسهل من الرقص بكثير. أما الآن في جسدي الجديد، فقد بدأت أحبّ السيرك الخلاعي للجنس المتوحش، ذلك الشيء الذي يشبه بعض الرقصات الحديثة التي كنت أراها، الرقصات الشهوانية الحيوانية الصامتة. تمنيت أن أصبح لحماً، أن أُقيَّد، أن تُعصب عيناي، أن أُصفع، أن أُجَّر، أن أُخنق، أن ألتحم تماماً في الجسدي، أن تنتاب الرعشة جميع ذواتي التي تدور في دوامة. وقد أطلقت على ذلك اسم «البصيرة من حافة الوعي»، وكانت الكلمات آنذاك تتدفق بسهولة، لكنها كانت آخر شيء يخطر ببالي.

وباستخدام الآخرين كان بإمكاني أن أصل إلى نشوة جنسية لمدة يومين أو ثلاثة أيام. كانت في الواقع شيئاً أشبه بالمخدر: متعة متألقة راعشة لا في جسدي فقط، بل أعتقد، في جوهر الوجود كله. النرجس يغني في مؤخرته! مرحباً! وكنت أدرك كذلك، عندما رحت أرقص عارياً على شرفة بيت يطل على بحيرة كومو عند الفجر بعد أن أمضيت الليلة مع شابّ وشابّة لم يثيرا اهتمامي، كم عدد المدمنين الذين تعرفت عليهم، وما قد يسببه أيّ شكل من أشكال الإدمان من الضجر والتعب. وكان الشيء الوحيد الذي لم أكن أرغب فيه هو أن أقع في شباكه.

أما بالنسبة للمجموعة، فقد كان هناك جنس من كلّ نوع وصنف، وقد انتقل الآخرون لتعاطي الهيروين. كان اثنان من الشبان على الأقل يحملان فيروس الإيدز. وكان عدد آخر منهم يؤمن أن هذا هو مصيرهم. وبما أن صلتي بالواقع كانت تتم في معظم الأحيان عن طريق المشاهدة والمراقبة، فقد استغرقت فترة من الزمن حتى أتأكد كم كانت متعهم بائسة ولا أمل يرجى منها، وكم كان إحساسهم بالمأساة والموت رومانسياً إلى درجة التفاهة. لقد تجاوز جيلي كل هذا مع جيمس دين، وبراين جونز، وجيم موريسون وآخرين. ولو كنت شاباً الآن لوجدت تعاسة شاعرية تصعب مقاومتها. وفي حالتي هذه كنت أعرف أني لست واحداً منهم، لأني كنت أسأل نفسي ما رأي أبائهم بهذا.

الشيء الذي كان يشغل بالي على الدوام هو ما كنا ندعوه «التخليط». فقد بدا أن الحبّ الذي لا يتأثر بالعواطف الشخصية يحطّ من قدر الاتصال الاجتماعي. وكنت أعتقد، لا شكّ بغرور، أن إحدى إنجازات الحضارة هي أن تعطي قيمة للحياة، أن تتحدث مع الآخرين. أما الحبّ المخلص الوفي فلم يكن سوى تفاهة برجوازية معيقة غير ضرورية.

كنت أؤمن أنه ستأتي لحظة يصبح فيها الآخر، أو «جزء من الآخر»، كما كنا نقول، إنساناً. إذ إن مجرد إيماءة أو كلمة أو

صيحة تدل على تاريخ مكدوم أو عقل مريض. لقد ثقبت فقاعة التخيّل «الفانتازيا» (وقد بدأت أفهم بأن الفانتازيا شكل قاتل من أشكال التخّيل والاستغراق). ثم بدأت أرى نوعاً آخر من الانفتاح، الذي كان أيضاً فرصة لنوع آخر من الدخول إلى الواقع. لقد هربت لأني لم أكن أريد أن تجرفني رغبتي إلى شخص آخر. وبالفعل، وباستثناء علاقتي مع المرأة التي دفعت لي نقوداً لأمارس الجنس معها، لم أكن أهتم إلا بشعوري أنا فقط.

وأصبح من الواضح، على الأقل، أن متعنا، لا إدماننا وآثامنا، هي أكبر مشاكلنا. إذ يمكن أن تغيّرك المتعة في لحظة، يمكنها أن تأخذك إلى أي مكان. وإذا كان هذا الإشباع مسكراً ويكاد يكون باطنياً في شدته، فقد تعلّمت أنه عندما يحدث شيء غريب، لم يكن ذلك الاسترسال والانغماس شيئاً يمكن أن تفرغ له كلّ وقتك، وليس الواقع شاطئاً تتكسر عليه الأحلام. لقد تبين لي أني كنت قابلاً للإغواء.

كان لأحد الفنانين في مجموعتي ابن في الرابعة من عمره. ولم يكن الآخرون يبدون اهتماماً دائماً به. وكان الطفل يمضي معظم وقته في مشاهدة أفلام فيديو، وكانت وحدته تعكس وحدتي. فإذا كنت في حفلة ولم أعد أستطيع أن أنام في اليوم التالي، كنت قبل أن أعالج أرقي بحبة أخرى، أصطحبه لمشاهدة العناكب في حديقة الحيوانات. وكان إضحاكه أكبر مصدر لسروري. كنا نلعب كرة القدم ونرسم ونغني. ولم أكن أبالي إن سرت خبباً لأجاريه في سرعته، وكنت أختلق قصصاً أرويها له في المقاهي، وكان يقول لي «اقرأ لي قصة أخرى». وقد ساعدني في أن أتذكّر اللحظات التي كنت أمضيها مع طفليّ: فقد كان ابني، الذي كان في الرابعة من عمره، يجلب لي صحيفة قديمة من المطبخ، لأنه تعوّد على أن يراني أقرأ دائماً.

وقد جعلني رفضه بعناد أستشيط غضباً مرتين، حيث وجدت نفسي أخبط الأرض بقدميّ. وجعلني هذا الارتباط المزعج في حقيقة

الأمر أرى أني لو كنت غير ذلك لكنت أشبه بجاسوس، متوارياً وحذراً على الدوام. وإذا كان جيلي مفتوناً بما كان يشبه بيرجس، أو فيلبي أو بلنت ـ الثمن العاطفي لحياة مزدوجة بالإنكفاء والتواري في عقلك ـ فقد كان الطفل يذكّرني كيف أن الجانب المفيد من الذات يخبئ أسراراً خطيرة.

كان الطفل يجعلني أدور في دوامة لا تتوقف. كنت أبكي وحدي، وأحسست بالذنب لأني لم أكن كثير الصبر مع أطفالي. وكتبت رسالة طويلة بالبريد الإلكتروني أعتذر فيها عن أخطاء كنت قد ارتكبتها منذ سنوات، إلّا أني لم أرسلها. لكن تبين لي أن معظم أيام طفولة أطفالي كانت خاوية. فإما كنت في مكان آخر، أو كنت أريد أن أفعل شيئاً «مهماً»، أو أني كنت «باحثاً فكرياً»... أو أني كنت أريد أن يكون الأطفال كالبالغين ـ بمعنى آخر، أقل انفعالاً وإثارة للغضب ـ كان تقسيم العمل بين الرجال والنساء في أيامي تلك واضح المعالم: فقد كان المال للرجال، والأطفال للنساء.

وبدأ حبي للطفل يزيد على حبي للكبار. ففي ذات مرّة رآني أتقيّأ على أرض الغرفة، فأبدى عطفاً شديداً تجاهي. لم أكن أرغب في أن يعتبرني أحمق. لقد أثارني كلّ ذلك. فلم أكن أتوقع أن تجعلني تجربة الجسد الجديدة هذه أحبّ طفلاً في الرابعة من عمره تجاوزت نرجسيته نرجسيتي إلى حد كبير. فحين يتعلق الأمر بالشباب والجمال، كان يتمتع بهما، فضلاً عن الكم الهائل من التعاطف الكبير الذي كان يملكه. لم يخطر ببالي أني إذا أردت أن أبدأ من جديد ككائن بشري، فإني سأبدأ كأبّ، أو أن تتوافر لديّ طاقة أكبر حتى أشتاق إلى طفليّ اللذين يعيشان في البيت، إلى أصواتهما حالما أدخل البيت، مخاوفهما وأشيائهما المبعثرة في كل مكان. لقد نسي رالف أن يحذرني من أني قد أشعر بالرغبة في «النزوع إلى التأمل». وظننت أن هذه الفكرة توحي بحياة أبديّة لقلة من الناس، تماماً كما لم تسمع أحداً يقول إنه يتعين عليك أن تغسل الصحون في الجنة وأن تعاني من عسر هضم. كان عليّ أن ألقي جانباً إمكانية الأبوة خارج

عقلي، وأودّع الطفل بقبلة، وأذكّر نفسي بما كنت أصبو إليه، بما كنت أحبّ وماأزال أريده في حياتي القديمة.

أما في اللحظات الأكثر صفاء، ورغم كلّ شيء، فقد كنت أريد أن أكون أكثر قرباً من زوجتي. كنت أحبّ أن أراها تتجول في أرجاء البيت، أن أراها وهي تخلع ثيابها، وأن أتحسس أشياءها. كانت تستلقي في السرير تقرأ وكنت أتشممها، أصعد وأهبط على جسدها ككلب هرم، أنفه يرتعش. لم أكن دائماً معها. أما الآن فقد انكمشت بشرتها وتجعدت، انطوت وتهدلت، وتغّير لونها، لكني لم أشتهها قط لأنها كانت كاملة، بل لأنها كانت هي.

بعد جولتي في المدن واضطراري إلى ترك الطفل، قرّرت أن أقوم بجولة في الجزر اليونانية. وقد أصابني زهوي بنفسي بالسأم حتى من نفسي، ورحت أتوق إلى الشمس الدافئة والمياه الرقراقة والنسيم العليل. كان أمامي شهران ونصف الشهر من العيش بيسر ومتعة، وأردت أن أعدّ نفسي كي أعود إلى ـ المرض والموت ـ في الواقع. بدأت أفكر بما سأخبر أصدقائي وبما سأفعله.

وكما توّقع الطبيب، فلم أكن أتوق كثيراً للعودة إلى جسدي القديم. فعندما أتناول طعامي، هل سأشعر وكأني أمضغ مسامير وبراغي مقرفة؟ وهل سأتمكن في بعض الأيام من ابتلاع الموز والمسكنات فقط؟ إلا أنه بما أن جسدي القديم ومعاناته كانا يمثلان الحياة التي صنعتها أنا، وهو خلاصة إنجازي، فإني أظن أن عليّ أن أعود وأسكنه مرة أخرى. لم أكن من أنصار الخشوع المتشدد، لكن ذلك بدا أنه واجبي. وهل ستبدو لي قريباً أن معظم الوفيات أشبه بالانتحار؟ يكاد الأمر يكون مضحكاً: فبعد أن أصبحت جسداً جديداً أضحى العيش مستنقعاً من اتخاذ القرارات. وفي الوقت نفسه كنت أتطلّع إلى البقاء في المكان نفسه بضعة أسابيع وأنتهي، أو أعيد الكرّة مرة أخرى، «تحت البركان».

قال لي أبي ذات مرة، وكان مدير مدرسة محلية، قبل أن يتوفى

بسكتة قلبية، إنه كان نادماً لأنه لم يصبح ساعياً للبريد. فقد كان يحب هذه المهنة ويعتبرها مهنة لطيفة لأنك تجول في الشوارع لا يقلقك شيء سوى الكلاب، وهو أمر لابد أنه كان سيطيل حياته. وكنت اعتبر ذلك ضرباً من الغباء: فقد كان القلق شيئاً مثيراً أحتاج إليه. أما الآن فقد بدأت أفهم قصده.

إذ لم يكن يعني أنه كان يريد أن يعيش على راتب ساعي بريد. وبدأت أدرك أيضاً أنني لم أكن معتاداً على العالم المالي اليومي. فقد كنت دائماً أشتري حليبي بنفسي، لكن لم تكن لديّ أدنى فكرة عن ثمنه. ولم أكن أقدّر جيداً ما سأحتاجه كجسد جديد. ثمن الواقيات الجنسية! فبالإضافة إلى النقود التي وفرتها لرحلتي ذهاباً وإياباً، أنفقت معظم نقودي، ولم يعد بوسعي أن أستخدم حساباتي المصرفية أو بطاقات الإئتمان. وإلى حين عودتي كنت بحاجة إلى مكان رخيص أقيم فيه، وإلى نقود أحتفظ بها.

وفي صباح أحد الأيام، عندما كنت على متن أحد المراكب في اليونان، التقيت بامرأة في منتصف العمر تحمل حقيبة على ظهرها ذاهبة لدراسة التصوير الفوتوغرافي في أحد المراكز الروحية في الجزيرة التي كنت أقوم بزيارتها. كانت قد جاءت من لندن لزيارة المركز، المشهور بأنه يعيد الشباب للذين يعانون من تفسخ المدينة. وعندما حكيت لها قصتي الحزينة، عرضت أن تأخذني معها.

وبينما كنت أنتظر في مقهى يقع في ساحة قريبة، أحتسي النبيذ وأقرأ كافافي، ذهبت إلى المركز وسألت إن كان يوجد عمل لي لقاء وجبة طعام، ومكان أنام فيه ومبلغ ضئيل كمصروف جيب. وإلا كان عليّ أن أجد عملاً في إحدى الحانات أو المراقص، أو أحد المطاعم على شاطئ البحر. عادت المرأة وأخبرتني بأن المركز يبحث عن «عامل مؤقت» لتنظيف الغرف والعمل في المطبخ، شريطة أن أُعجِب زعيمة المركز، لقاء تناول طعامي مجاناً، وحصولي على قدر قليل من المال والنوم على السطح.

تمشّينا باتجاه عدد قليل من البنايات المطلية بالجير الأبيض التي تحفها بعض الأزهار والتي تقع على حافة منحدر، وتطل على البحر. كان الباب مشقوقاً في جدار طويل مرتفع.

قالت: «انظر». نظرت: الشيطان يختلس النظر إلى الجنة. «لا بد أنهن من الطبقة المتوسطة».

كانت حديقة مظلّلة ممتلئة بالنساء ـ من الطبيعي أن معظمهن من النساء ـ يجلسن على مقاعد. يتحدثن، ويكتبن بحماس في دفاتر ويقرأن. وفي إحدى الزوايا، رأيت امرأة تغني، وأخرى تمارس اليوغا، وأخرى تمشط شعرها. وعلى طاولة التدليك رأيت جسد امرأة يُدلّك.

كانت تلك النسوة في منتصف أعمارهن، ومن الطبقة المتوسطة، وبالطبع كن مطلقات لندنيات يتلقين غذاء «روحياً»، بالتأمل، والعلاج بالعطور، والتدليك، واليوغا، والعلاج بالأحلام. أما الرجال الثلاثة الذين رأيتهم، فكانوا في منتصف العمر، بصدورهم المجوّفة وعروق الدوالي المرتسمة على سيقانهم.

سألتني: «هل ستكون على ما يرام هنا؟».

أجبت: «سأتدبر أمري».

بعد إجراء جولة في المطبخ، «مكان العمل»، والغرف، وغرفة الطعام، أخذوني للقاء مؤسسة المركز أو الزعيمة، «المرأة الحكيمة» كما كانوا يطلقون عليها، بدون سخرية. وتكوّن لديّ انطباع بأنه سيكون من الحكمة لي أيضاً أن أبتعد عن السخرية.

اقتربت باتريسيا من باب بيت صغير مغلق، يبعد عن المركز مسافة عشر دقائق مشياً. كانت في آواخر الخمسينيات من عمرها، بدينة، وشعرها طويل أشيب، وترتدي ثياباً نسيجية وتفوح منها رائحة سجاد شرقي رخيص. دعتني إلى الدخول، وطلبت مني أن أجلس على وسادة. وفيما كدت أغفو كانت تتحدث بصوت عال على الهاتف، وتقرأ رسائلها في الوقت نفسه وتقول («أولاد الزنا! أولاد الزنا!»)، وتحك ظهرها، وكانت بين الحين والآخر ترمقني بنظراتها.

عندما نهضت لأتمعن إحدى الصور استدارت وقالت: «اجلس، لا تتململ! لا تتحرك لخمس دقائق!».

جلست وعضضت على شفتي.

وبوسعي أن أتذكّر مختلف جوانب نسويتها من المرة الأولى: قبحها المجنون، النشوة القسرية، والتزمت الثوري الكامل. لكني لم أشعر إزاءها بالاحتقار ـ بل بدا لي أنها نزعة الإشتراكية الإنكليزية المنحرفة، مثل مذهب جورج برناردشو مادمت لست مضطراً لأن أعيش في كنفها أو بالقرب منها ـ لكن يبدو أنه من الأفضل أن أكون شاباً في هذه الأيام: فقد أصبحت النساء أقل عدوانية، وأصبحن يكسبن مالهن من عرق جبينهن، ولم يعدن ينحين باللائمة على شخص يحمل قضيباً للكوابيس التي كنّ يرينها.

لقد أثار حنقي ما اعتبرته تعالي هذه المرأة، وكنت على وشك أن أغادر ـ لكني عرفت أنها لن تكترث بذلك ـ عندما خطر لي أني لست سوى طفل ومجرد خادم محتمل بالنسبة لها. فهنا لم أعد جسداً قديماً، ولا جسداً جديداً، بل أصبحت لا شيء.

كنت أميل دائماً نحو المستبدين، في المدرسة، في العمل وفي المسرح، أولئك الذين كان عددهم كثيراً عندما كنت صغيراً، الذين كان لمعظمهم خلفيات عسكرية. وكنت أجد متعة في اختبار نفسي إزاء شخصياتهم. كم مرّة يمكن أن يضربوك قبل أن يقبلوا بك؟ إلا أن غضب المراهق المتأخّر أخذ يهزني الآن. فقد نسيت كيف يكلمك الكبار، عندما لا يتجاهلونك، وكم يكرهون سماع رأيك وهم يعبّرون عن آرائهم. تتذكر نفسك في إحدى حفلات العشاء التي كان قد أقامها والداك، ويسألك أصدقاؤهما كيف تسير امتحاناتك فتقول لهم لقد رسبت، وإنك سعيد سعيد سعيد. ويزجرك والداك ويطلبان منك ألا تكون وقحاً، وأنك على وشك أن ترى إذا... كان أبواك يريدان كأساً من شراب الجين والتونيك، لكنك تريد رشاشاً وأن تقوم بثورة، إنك تريدهما الآن.

ومع ذلك، فقد خيّل لي أن باتريسيا تمتلك ذكاء كنت أتمتع به في شخصيتي السابقة. وتبين لي أنها، بعد المعاينة الظاهرية، هادئة. ولم يبدُ أن الفترات الطويلة التي أمضتها في عملية البحث الداخلي والتنفس العميق، أو ما شابه من علاجات تعاطتها، قد شفتها من حدة الطبع أو فورة الغضب.

عندما نظرت إليّ خشيت أن نظرتها كانت تنم عن شيء من الإدراك الحسي، فأحسست بأني أنكمش. ولأول مرة راودني شعور بأن أحداً اكتشف أني شخص منتحل، مزيف، شخص لم أكن أنا هو. لكن اللعبة انتهت، وانتهى التظاهر.

سألت: «ماذا قلت اسمك؟».

«ليو رافائيل أدامز».

صدر عنها صوت كالنخير: «كان والداك بوهيميين، أليس كذلك؟».

«ربما».

«ربما كنت أعرفهما».

«لا، إنك لا تعرفينهما».

«ماذا كانا يفعلان؟».

«أشياء كثيرة».

«كانا يتنقلان بسهولة كبيرة؟».

«من حسن حظهما»، قالت. «ماذا تريد أن تعمل؟».

أجبت: «أن أشتغل هنا لفترة من الوقت. سأعمل أيّ شيء تطلبينه مني».

«أرجو ذلك. لكن لا تتظاهر بأنك ستنفذ كل ما أقوله حرفياً يا ليو، عندما تعلم أني أقصد «في الحياة».

قلت: «في الحياة؟ لا أعرف. حقاً ليس عندي فكرة. لماذا يجب عليّ أن أفعل «أيّ شيء؟»

قلّدتني. «لا أعرف. لا أبالي. لا أكترث البتة».

ظلّلت عيني، كما لو أني كنت أحميهما من الشمس. «لماذا لا تكفين عن التحديق فيّ؟»

«وجهك الخالي من التعابير».

قلت: «هل هو خال من التعابير؟ لقد نظرت إليه كثيراً و...».

«أستطيع أن أتخيّل يا عزيزي».

«لم يخطر ببالي أنه خال من التعابير».

«هل توجد فكرة ذكية واحدة فيه ـ شيء يجعلني أفكر». لم أسمع ذلك من قبل؟ «لا بد أني نسيت» واصلت كلامها، «هذا الضرب من الحديث ليس فناً ذكورياً».

كنت أريد أن أقول أشياء كثيرة، لكني إن بدأت أحدّثها، فلن أعرف كيف سيكون عليه الحال أن تكون شاباً.

قلت: «هل تريديني أن أغادر».

«إن كنت تريد ذلك»، وراحت تقهقه. «لا يعمل رجال هنا عادة، مع أنه لا يوجد قانون يمنع ذلك. قد أكون واحدة من النساء اللاتي يؤمنّ بالمساواة بين الرجل والمرأة، وأنا في الستينات من عمري وعلى الطراز القديم، وقد يكون تقدير النساء لذاتهن في عالم الذكور مثيراً للاهتمام، لكني لا أنوي أن أشيّد ديراً للراهبات. و«قضيبك الغليظ» ـ ونظرت مباشرة بين ساقيّ ـ من المؤكد أننا سنضع القط بين الحمامات. أظن أن ذلك سيسلّيني. يمكنك أن تبقى... لفترة قليلة من الزمن».

«شكراً».

توجهت باتريسيا نحو النافذة، وانحنت وأخذت تصرخ باتجاه الباحة.

أخذت تصيح: «أليسيا... أليسيا»، وعلى الفور تقريباً ظهرت فتاة. فقالت لها: «خذيه، إنه سيعمل هنا. أعطه شيئاً يفعله!»

عندما عدت، أدركت أن شخصاً يقف بجانبي، واهياً كظلّ.

قلت: «أظن أني سأخرج من هنا».

«هل هذا ما تفعله عادة ـ الهروب؟».

«إذا كنت عاقلاً».

«لا تصبح عاقلاً».

قلت: «يبدو أن ثمة شيئاً يتعلق بي قد أثار حنقها».

«إنك تأخذ الأمر على محمل شخصي؟».

«قرّرت أن أفعل ذلك».

«جعلني ذلك أتساءل ما نوع السيطرة التي يمكن أن تكون لي عليها».

«لن تكون لديك أيّ سيطرة عليها».

لم تكن أليسيا فتاة صغيرة، بل شابّة من لندن، شاعرة ركيكة ويوجد حَوَل في عينها، وثمة تكوّر عند طرف فمها. قالت لي إنها ستمكث في المركز مدة ثلاثة أشهر على حساب محسن أمريكي، تكتب وتتعلم خلالها. ورغم أشعة الشمس اللاهبة، وجوع النساء الأخريات لها، لم تسمّر أليسيا جسدها. فقد أبت بشرتها إلا أن تحافظ على بياضها. ورافقتني لتريني سطح المركز حيث سأنام.

كان النهار قائظاً، وكان الليل في غالب الأحيان بارداً، لكن كان من الجيد أن أنزوي بنفسي. فأنا أحبّ السماء، مع أنه لم يتح لي الوقت بعد «لمناجاتها».

وفيما كنت أخرج بعض الأشياء من حقائبي، فتحت أليسيا دفتراً، كانت قد صبّت فيه روحها، وقضمت أظافرها بأسنانها عليه، وسألتني إن كنت لا أمانع في أن تسمعني بعضاً من قصائدها.

قلت: «لم لا؟ فأنا لم أسمع شعراً منذ أن كنت في المدرسة».

«أين كانت مدرستك؟».

«في كل مكان».

«هل قرأت شيئاً؟».

«جدران المراحيض».

قالت تحذّرني إن معظم أشعارها تدور عن الأشياء.

«أشياء؟»...

أوضحت لي أنه حتى هنا، في مهد الفكر المتعاقب، فإن لغة العصر الجديد ولغة مساعدة الذات، تجاوزت الآن المحاكاة الساخرة، وطغت على مفردات الأحاسيس العاطفية. فإذا سُمّمت لغة النفس، فإن ذلك يعتبر شيئاً فادحاً للشاعر. وسيحدث هذا للأشياء التي لا تخلو من الروح، التي قرّرت أن تركّز كل طاقاتها عليها.

«أعطني مثالاً»، قلت.

بدأت بقصيدة عن أباريق الشاي ومحامص الخبز. أعجبتني لذلك أتبعتها بأخرى عن مكنسة هوفر الكهربائية التي تمتلكها، وقصيدة أخرى عن النظم الموسيقية، التي لم تكتمل بعد. وعندما طلبت منها أن تواصل قراءتها، حدثتني عن مواضيع القصائد الأخرى: عن السجاد، والأسرّة والستائر وطلبت مني أن أزودها باقتراحات لكتابة المزيد.

غيّرت قميصي، وهي لحظة أصبحت استمتع بها كثيراً، وقلت لها أنا أعتقد أنه من الجيد أن تكتب قصيدة عن النوافذ.

فقالت باستغراب: «عن النوافذ؟ عما تتحدّث؟».

«وما العيب في النوافذ؟».

قالت إنها مادة شاعرية «للغاية». وقالت مقتبسة من جون كايغ إنها تهتم بالعواطف «البيضاء» لا بالعواطف «السوداء». وأضافت أنها بحاجة لأن تجتاز مرحلة العواطف السوداء إلى «البيضاء».

«هل فهمت قصدي؟».

«لم أفهم ولا كلمة واحدة مما قلته. فأنا كما تعرفين مجرد عامل تنظيفات».

«إني أكتب لهؤلاء الناس. عمال التنظيفات والطباخين. فبعض القصائد لا تكتب إلا للجهلة».

«إذاً يجب أن أكون الرجل الذي تقصدينه».

راحت تنظر إليّ. كان وجهها شاحباً لكنه لم يكن ينم عن شيء، كما لو أن يأسها لم يغمره بعد. إلا أن إحدى عينيها بدأت ترمش بقوة الآن مثل فراشة علقت في المصيدة. أردت أن أقترب منها وأضغط بإصبعي عليها. لكنها ربما خرجت من يدي وتمزقت أشلاء. لا بد أن الفتاة المسكينة قد وقعت في الحبّ في تلك اللحظة.

كان العمل الذي كُلّفت به في المركز صعباً. وبدا أن جسدي يشعر بالراحة ـ فقد كان يحبّ أن يُشَّد ويُمطَّ ـ أما دماغي فكان قلقاً ومشوشاً. ففي الحياة التي كرّستها لنفسي، لم أُرغم على عمل شيء ضد إرادتي منذ سنوات طويلة، وكنت أنجح دائماً تقريباً في أن تحيطني بعض النساء بالرعاية. أما الآن فقد أصبحت أساعد في الطهي، مع أنه كان من الجيد أن أتعلم فن الطهي. وكنت أيضاً أقوم بإفراغ صناديق القمامة، وأنقل على ظهري أكياساً ثقيلة محملة بالطعام من الشاحنات، كما تعلّمت كيف أبني جداراً. كنت أكنس وأنظّف وأطلي الغرف. وخيّل لي أن العالم هو هكذا بالنسبة لمعظم الناس، ولم أشعر بضير في أن أتذكر ذلك.

لقد أتيت إلى هنا لأتعرف على أبسط الأشياء. أطلقت لحيتي، وتعلّمت رياضة يوغا غاي تشي والقرع على الطبل. ورحت أسبح مسافات طويلة، وأتشمّس، وأقرأ، وكنت أنصت إلى النساء يتحدثن أثناء وجبات الطعام. وفي الليل كنت أتسكع وأدور حولهن، كما كنت أفعل مع أمي عندما كنت طفلاً. وكوّنت لنفسي سمعة بأني خجول

وصامت. ربما كنت جميلاً، لكن الاهتمام المباشر كان آخر شيء أتوق إليه. كنت في بعض الأحيان أدلّك النساء، وأدندن أغاني لنفسي. وذات مرّة رأيت إحداهن مستلقية تحت شجرة تقرأ مسرحيتي الأخيرة، التي صدرت منذ خمس سنوات. وعندما مررت بجانبها سألتها: «هل هي جيدة؟».

«المسرحية ليست جيدة كالفيلم».

بدأت أحبّ جمال الجزيرة والسكينة التي كانت تمنحني إياها. كدت أخلو من أي شعور بالرغبة في أن أفهم. وبدا أن الإثارة والحنق ليسا ضرورين كأدلة على الحياة. ورحت أتساءل إن كانت ستختلف قيمي عندما أعود إلى جسدي القديم. كنت متيقناً من أنني أريد أن أعود، إلا أنه سؤال لم يعد يبارحني الآن. كانت هناك حجج مقنعة في كلا الجانبين. ماذا يمكن أن يكون الأسوأ؟ لكني سأؤجّله لأطول فترة ممكنة.

كانت باتريسيا تظهر عادة عند الإفطار وتلقي كلمة عن أهداف المركز وغاياته. وفي إحدى المرات أخذت تروي لنا أحد الأحلام التي رأتها في منامها، ثم فسرته لنا لكي لا يساء فهمها. وساد صمت مطبق قبل أن تنسل خارجة. دمدت بضع كلمات باتجاهي، لكنها كانت دائما تحدجني بنظراتها بقوة كما لو كنا على علاقة بطريقة ما، كما لو أنها على وشك أن تتكلّم. أظن أنها كانت تنظر إلى الجميع هكذا، بين الحين والآخر، لكي يشعروا أنهم جزء من مجتمعها. لم أعد أظن أنها كانت تفهمني، لكن هل كنت أجعلها تشعر بالفضول نحوي؟ بدا أنها تريد أن تقول: ماذا تريد حقاً؟ لقد أثار ذلك حنقي. ابتعدت عنها لكنها ظلت قابعة في عقلي كسؤال.

كانت حلقات العمل التي تعقدها باتريسيا الأكثر جدية وشعبية، وكانت مكتملة العدد على الدوام. إلا أن هؤلاء الأشخاص، كما أفضت لي أليسيا سراً، كانوا يذرفون قدراً من الدموع أكثر من الحكمة التي يتلقونها. لكني لم أكن سوى عامل يقطّع اللحم في

المطبخ لا دور لي على الإطلاق. وعملاً بنصيحة أبي فقد كنت في عطلة عمل.

بعد عشرة أيام من مباشرتي العمل جاءت باتريسيا إلى المطبخ حيث كنت أعمل تحت إمرة امرأة يونانية مسنة لم أكن أتمكن من التفاهم معها. ولم أكن قد رأيت باتريسيا في المطبخ من قبل على الإطلاق. وكالمراهق الفظ كنت أريدها أن تراني، فيما كنت أرفض أن تلتقي عينايّ بعينيها. قالت لي أن أتوقف عن تقشير البطاطا.

«توقّف الآن».

«باتريسيا، لا أشعر بالارتياح عندما أترك نصف حبة البطاطا بدون تقشير».

«فلتذهب البطاطا إلى الجحيم! إني على وشك أن أبدأ برواية حلمي للمجموعة الجديدة. لقد قررت أنه حان الوقت لكي تنضم إلينا».

«أنا؟ لماذا؟».

«أظن أنه يجب أن تتعلّم شيئاً».

«لكني لا أريد أن أتعلّم. لقد درست لسنوات كثيرة ولم أفهم شيئاً، كما قلتِ». بدا الانزعاج عليها، لذلك قلت: «ما نوع الحلم؟».

تنهّدت. «إننا نتحدث عن أحلامنا بطريقة تداعي الأفكار. فمن الممكن أن نكتب أو نرسم عنها، بل حتى قد نرقص. لقد رأيتك تهزّ مؤخرتك في الديسكو. لا بد أن ذلك قد فتن الفتيات، كما يُفتنّ عندما تبدأ تتجول في المكان دون أن ترتدي قميصك. لكنك كنت تبتعد دائماً عن أعضاء الحلقة الدراسية، أليس كذلك؟».

«هذا شيء بديهي».

«حتى تلك البلهاء مع الشبح؟».

قلت: «آه، نعم، ذلك الشبح اللعين».

كان الشبح يُدخل البهجة دائما إلى نفس باتريسيا.

وقفت امرأة كانت قد وصلت إلى المركز مؤخراً وخُصّصت لها غرفة في البلدة شأن بعض المشاركين الآخرين، وقالت أثناء الفطور إن غرفتها مسكونة بالأرواح. وظنت باتريسيا أن هذه حيلة من المرأة لتنتقل إلى غرفة أفضل تطل على البحر ـ وهو شيء ليس بوسع باتريسيا أن تقدمه لها أو ترغب في أن تقدمه. وبدلاً من أن تنقلها إلى غرفة أخرى، كلفتّني باتريسيا بأن أجلس طوال الليل عند مدخل غرفة المرأة لكي أحرسها من الأشباح.

«إن مراقبة الأشباح إحدى واجباتك»، قالت لي باتريسيا، وهي تكاد تكتم فرحتها. «وما أن يظهر ذلك النغل، يمكنك أن تتعامل معه».

قلت: «ليس هذا العمل من مهامي الأصلية»، ثم سألت: «وهل تستخدم الأشباح الأبواب؟»

«اذهب إلى الجحيم وافعل ما أطلبه منك. فالأشباح لا تتوانى عن استخدام جميع الثقوب والفتحات».

قلت لباتريسيا: «لن تمضي فترة طويلة حتى يسمع كلّ سكان لندن بهذا الخبر ـ بأني كُلِّفت بمراقبة الأشباح».

في تلك الليلة مكثت طوال الليل مستيقظاً بقدر ما أمكنني، لكني بطبيعة الحال غفوت على الكرسي. جاءت الأشباح. لم يزعجني أنها حاسرة الرأس، لكن ظلالي الداخلية وخيالاتي التي كانت قبيحة إلى درجة كبيرة، أصبحت منهمكة كثيراً. ونامت المرأة التي كنت أحرسها نوماً هنيئاً. وفي الصباح كنت مبللاً بالعرق البارد، وقد تشكلت تحت عينيّ حلقات داكنة. وتبين لي أن النساء في المركز، عندما لا يُحطن بالاهتمام الكافي لا يعدن يضحكن كما كن يضحكن لدى وصولهن.

«وخاصة مع النساء الأشباح» قلت لباتريسيا.

قالت: «حسناً. إنك لن تدفع شيئاً لقاء قضائك العطلة. هيا تعال الآن. فالناس يدفعون مئات الجنيهات للمشاركة. إني أريدك أن ترى

ما يجري هنا. قل لي. من المؤكد أنك لا تؤمن بأن العقلاني هو الحقيقي فقط، أو أن الحقيقي هو العقلاني دائماً، أليس كذلك؟».

«لم أفكر بهذا الأمر كثيراً».

«إنك تكذب!».

«لماذا تقولين هذا؟».

«هناك أشياء كثيرة لا تريد أن تعترف بها! فكم عدد الشباب في عمرك الذين يصفّرون ألحاناً وهم يقشّرون البطاطا؟»

خرجت. توقّعت أن أتبعها، لكني لم أكن من ذلك النوع الذي يتبع أحداً، وخاصة إذا أراد ذلك الشخص أن أتبعه.

نظرت إلى المرأة اليونانية الهرمة، وهي تغسل أرضية المطبخ. كان هذا النوع من الحقيقة الذي اعتدت عليه: أن تحصل على مكان ترغب الإقامة فيه.

لكني غادرت المطبخ وخرجت، ثم صعدت الدرج. وفي الغرفة الكبيرة رأيت باتريسيا والآخريات ينتظرنني.

أشارت إلى الأرض وقالت: «سنبدأ بعد أن تجلس».

أخذت تحوم حول المجموعة، وطلبت من كلّ واحدة أن تروي لها أحلامها. خيالات تتوالد وتتكاثر. كانت الرمزية والتلاعب في الكلام يسودان تلك المجموعة العادية من الناس! بقيت أكثر من ساعة، ثم جاء وقت الاستراحة. تنفّست الصعداء أخيراً، وهرعت خارجاً إلى حيث الحرارة. غذذت الخطى ولم أعد، بل دخلت إلى المدينة، حيث تعيّن عليّ أن أشتري مواداً للمركز.

عندما عدت كانت أليسيا تنتظر تحت شجرة في الخارج، تحمل دفترها. نهضت ولوّحته في وجهي.

«ليو، أين كنت؟».

«كنت أتسوّق».

قالت: «لقد أحدثت جلبة كبيرة. لا تستطيع أن تترك باتريسيا بهذا الشكل. أنا من النوع الذي يحترم ذلك. لا أحبّ أن أرى الناس يغادرون دروسي. أعرف أن ثمة شيئاً قوياً يجري هناك. لا أحبّ أن يكون الشعر عاملاً مساعداً. لكننا نحن الذين نتلذذ بالألم ننجذب إلى باتريسيا. إننا نفعل ما تقوله. نحضر كلّ جلساتها».

قلت: «كان لديّ عمل يجب أن أنجزه»، فلم أكن أجرؤ على القول إني تركت حلقة عمل باتريسيا لأنها كانت تزعجني. فقد كانت الأحلام تسحرني دائماً، وعندما كنت في لندن كنت أدوّن أحلامي، وكنا أنا ومارغوت نناقش أحلامنا في كثير من الأحيان أثناء الفطور.

كان حلمي عن مراقبة الشبح على النحو التالي: فقد رأيت والديّ المتوفيين مرة أخرى لأجري معهما حديثاً أخيراً. وعندما التقيت بهما كان رأساهما يلتقيان عند أذن واحدة، مشكلّين رأساً يثير التساؤل ـ لم يعرفاني. حاولت أن أوضّح كيف أصبحت أبدو مختلفاً، لكنهما استشاطا غضباً لأني ادعيت أنني أنا نفسي. استدارا وعادا إلى الخلود قبل أن أتمكن من إقناعهما ـ كما لو أني تمكنت في حياتي ـ أن أقنعهما.

أما الحلم الآخر فكان أكثر من مجرد صورة: لقد كان عن رجل يرتدي معطفاً أبيض ويحمل دماغ إنسان في يديه، ويجتاز غرفة بين جسدين، جمجمة كلّ من الجسدين مشقوقة وفيها مفصلات صغيرة. وكانت تتساقط من الدماغ ذي الرائحة النتنة قطع من الذاكرة والرغبة والأمل والحب، مغلّفة بأنابيب تشبه الجلد، تتساقط على الأرض المكسوة بنشارة الخشب وتلعقها الكلاب والقطط الجائعة.

ورغم رغبتي الشديدة في أن أروي للمجموعة هذا الحلم لم أتمكن من ذلك. لقد جعلني تحولي هذا أرغب في العزلة. فكما ذكر رالف كان هذا الثمن الذي تعين عليّ أن أدفعه.

بالطبع لم أستطع أن أقول هذا لأليسيا، التي أصبحت صديقتي الحقيقية الوحيدة في المركز. فقد كانت تنتمي إلى عائلة بوهيمية. وقد توفي أبوها وهي لما تزل في بداية سن مراهقتها. وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها أخذتها أمها لتعيش في كومونة كان أفرادها مهووسين جنسياً. مما جعلها تصبح «باردة جنسياً». وأحست بأنها مهملة كطفل جائع. أما الآن فقد أهملت نفسها، ولم تعد تأكل كثيراً، لكنها كانت تحمل دائماً كيساً من الجزر أو التفاح أو الموز تقطّعه إلى قطع صغيرة بمطواة وتلتهمها قطعة قطعة. ولم تكن تتناول إلا الطعام الذي تعدّه بنفسها، ولاحظت أنها كانت تتناول طعامها وحدها أو معي.

كنا نتحدث أنا وهي في الأمسيات. وكانت تقام حفلات للمشاركين في المركز مرتين في الأسبوع، يشتد فيها الشراب والرقص. كانت لدى النساء طاقة لا تنضب. وكنّ يحببن تاميلا موتاون ودونا سمر، أما أنا فكنت أحبّ سيقانهن وهي تتحرك تحت تنانيرهن الطويلة. ثم أصبحت مهمتي أن أرفع الكؤوس، وأكنس الأرض، وأُفرغ منافض السجائر، وأُعد طعام الفطور لأعضاء المركز. كنت أقوم بذلك بشكل جيد، إذ أصبحت النظافة بمثابة قصيدة لي. وأصبحت رؤية عقب سيكارة بمثابة صفعة في وجهي. وكانت أليسيا تحبّ أن تساعدني، وهي جاثية على ركبتيها حتى ساعة متأخرة من الليل، فيما كان الآخرون يسهرون ويروون أحلامهم.

بدأت أليسيا تكتب قصصاً ومطلع رواية أرتني إياها. كنت أفكر بما كانت تكتب وأعلّق عليه عندما كنت أظن أنه بوسعي أن أقدّم لها مساعدة. كنت أحبّ أن أكون مفيداً. وكنت أرى كيف كانت ثقتها تهتز أحياناً.

وعندما كنت أنهي عملي في وقت متأخر من المساء، كنا نذهب أحياناً إلى الشاطئ. كنا نسير أمام شبان وفتيات غادروا الحانات والمراقص ليتناكحوا في الظلام: أجساد هولندية واسكندنافية

وألمانية وفرنسية، يحاول الواحد منها، كما بدا لي، أن يعتصر حياة الآخر. أما عملنا فقد بدا أكثر أهمية، وهو الحديث عن الأدب. فالجنس موجود في كلّ مكان، أما الكلمات الجيدة فلم تكن موجودة في كلّ مكان.

منذ أن كنت في منتصف العشرينات من عمري، رحت أدرّس الأدب والكتابة في جامعات شتى، وكنت أدير عادةً حلقة بحث عن الكتابة في لندن. كنت أبدي اهتماماً بالأسلوب الذي يتحدث فيه الناس، وهم يتحدثون لأنفسهم، والتأثير الذي يخلّفه حديثهم على علاقاتهم ببعضهم بعضاً. أما عندما أصبح الأمر يتعلق بأليسيا فقد أصبحت أميل إلى هذا النوع من التعليم وأحبّه.

مع ذلك فقد كنت أحاول أن أتحدّث بجمل قصيرة، كما لو أني لم أكن أعرف أشياء كثيرة. وبذلت جهدي ألا أبدو مغروراً، كما كنت في جسدي القديم. وكان ذلك يتطلب مني جهداً حقيقياً. فقد اعتدت على أن ينصت لي الناس، بل حتى أن يدونوا ما أقوله. كان الغرور مفيداً لأثبت ذاتي، وبدا أن سلطتي كانت تسهم في تحرير بعض الناس. وبدا أن أليسيا تحب السلطة التي كنت أستجمعها في بعض الأحيان. فقد لا يكون من المفيد أن أبدو أكبر سناً.

وكان علّي أيضاً أن أحذر من هذه الفتاة القلقة، النحيفة، مع أنها كانت السبب في بقائي هنا وعدم مغادرتي، وعندما كانت تسألني عن أحوالي وعن مؤهلاتي التعليمية كنت أراوغ معها، كما لو أنني لم أكن أصدق قصصي التي كنت أرويها، أو أنها لم تكن في نهاية الأمر تعني لي شيئاً، مما جعلها تشعر بالإحباط. فقد كانت تريد أن تسمع المزيد عني. كان بوسعي أن أرى أنها كانت تعرف أني كنت أُحجم عن قول أشياء كثيرة.

«ماذا تكتبين مؤخراً؟»، سألتها ونحن نتمشى.

«قصيدة عن النوافذ».

«يعرف الجميع أن الشعر والنوافذ لا يتوافقان».

فقالت: «يجب أن يتوافقا، مثلنا».

قلت لها: «أسرعي، يجب أن تذهبي وتري باتريسيا».

«الآن؟ هل هي غاضبة مني؟».

فركت يديّ وقلت: «أظن ذلك».

زادت مخاوفها من مخاوفي. تذكّرت كلّ أنواع التجاوزات والأهوال في الماضي: نوبات غضب أمي، إرسالي إلى المديرة لأُضرب على يدي بالعصا. فعندما كنت صغيراً، كان يسمح لكل من هب ودب أن يضربني، بل حتى أنهم كانوا يتباهون بما كانوا يفعلونه لي، ولم يكونوا يشكرونك إن رددت لهم المديح. أما الآن، وبعد أن برزت مخاوف عديدة أخرى، دخلت في دوامة للحظات عديدة لأتذكر بعدها أن اسمي ليو أدامز. كان بإمكاني أن أتصرّف بطريقة مختلفة، في مراجعة الماضي، إذا جاز التعبير، وأن لا أكون ذلك الصبي الخائف الذي كنته آنذاك.

قلت: «هيا... امشي معي».

«ألست خائفاً منها؟»، سألت أليسيا.

«إني مرعوب».

«وأنا كذلك. هل ستغادر؟».

«حسنا، لا أرى سبباً يجعلني لا أغادر».

«أرجوك لا تغادر». واصلت كلامها، «هناك شيء آخر أيضاً. لقد سمعت نكتتك».

«حقاً؟ لم تذكر لي ذلك».

«لعلها ستقول لك الآن».

«وكيف وصلتها؟».

تضرج وجهها خجلاً. «هذه الأشياء تحدث».

كنت قد رويت قبل أيام قليلة نكتة، وهذا شيء غير مستحب في المؤسسات. لم تكن نكتة ممتازة، بل كانت من وحي اللحظة وجعلت أليسيا تضحك إقراراً بذلك. فقد سميّت المركز *«ابكي بسهولة»*. استخدمت الكلمة عدة مرات، كما ننحو نحن الشباب إلى فعل ذلك، وكان ما كان. فقد دخلت في مجرى دمّ المؤسسة.

سرنا الآن عبر القرية إلى بيت باتريسيا. كانت الدكاكين قد أغلقت. وكان المكان مهجوراً. إذ أن معظم الناس يأخذون قيلولتهم الآن، كما تفعل باتريسيا في هذا الوقت عادة.

وخارج منزل باتريسيا، قالت أليسيا إنها ستنتظرني تحت شجرة في الساحة.

طرقت الباب، وظهر وجه باتريسيا العصبي من النافذة. يسعدني القول بأنني أسبب ازعاجاً لباتريسيا على الدوام؛ إذ إن بقائي على قيد الحياة، خيب أملها. أما الآن، وللأسف، فقد كانت مشرقة الوجه.

جاءت إلى الباب وهي ترتدي تنورة تلفها حول خصرها. وكان نهداها السمراوان الكبيران يتدليان.

«يا إلهي» قلت، واعتراني شعور بالخجل. أعرف أنها أساءت فهمي. تابعت كلامي وقلت: «باتريسيا، ثمة شيء أريد أن أحدثك عنه».

قالت: «يسرني أنك جئت، غريب. لديّ عمل لك. لماذا تركت حلقتي الدراسية؟».

«أريد أن أفكر في الموضوع».

«هل أعجبتك إذن؟» عندما هززت رأسي قالت «إذا كان الأمر كذلك، كم أعجبتك؟ كثيراً جداً، جداً؟ أم مجرد كثير؟ أو شيء آخر؟»

«باتريسيا، دعيني أفكّر بذلك». راحت ترمقني، ثم قلت: «لقد أعجبتني في واقع الأمر».

«لو كان هذا صحيحاً، فلماذا لا تقول ذلك بكلماتك».

قلت: «لقد استخدمت الحلم، ليس كلغز ينبغي فكّ رموزه، بكلّ ذلك القلق، كما لو أن أحدنا سيفهمه بشكل صحيح، بل كصورة محسوسة لتوليد الأفكار، أو صور أخرى. كان ذلك مفيداً. لم أتوقف عن التفكير».

«هذا شيء جيد». أحست بالإطراء والسعادة. «كما ترى يمكنك أن تكون فصيحاً إذا أردت أن تكون حقاً. بالمناسبة لقد سمعت الاسم الذي أطلقته على المركز». قالت. «أليس كذلك؟».

«أنا آسف»، قلت مطرقاً برأسي.

«هل هذا رأيك فيه؟».

قلت: «من السهل أن تجعلي الناس يبكون. لكن الاعتراف، لا السخرية، أصبح الوسيلة الحديثة. فخطاب مؤثر في جمعية مدمني الخمور أصبح النموذج المثالي. لكن لم كلّ هذا التمويه والمكر في هذا العرض من استدرار الشفقة؟ ألا يشعرك هذا بالضجر؟».

«لم تعد هناك صرامة، قد تكون محقاً، أو أيّ تقدم. لقد أصبح الأمر يتكرر في كلّ يوم. يمكنني أن أقول لك، هذا أدنى شيء يمكننا أن نفعله»، ثم أضافت: «أرجوك، تعال إلى هنا».

«آسف؟».

«هنا»، واندفعت نحوي. طوقتني بذراعيها وضغطت بصدرها على جسدي وأضافت: «ينتابني شعور بالتوتر اليوم، كنت أريد أن أدير مركزاً لسبر أغوار النفس، لكن تبين لي أني بدأت عملاً صغيراً. لا لايمكنك أن تعرف شيئاً على حقيقته إن لم تكن لديك أرقام صحيحة ـ على الأقل علّمت ذلك بعض النساء في الثمانينات. أما الآن فقد سئمت من عملي كمحاسبة، وسئمت من أني أتمتع بالحكمة. وفي بعض الأحيان، تعتريني رغبة في أن أصبح مجنونة».

قلت: «نعم، إن كونك امرأة حكيمة، لا بد أنه شيء يبعث على الملل».

«ومن يرعاني؟ يجب أن أرعى الجميع كأمّ! إنك تحضر جلسة التدليك، أليس كذلك؟ إنك تعرف كيف تفعل ذلك».

بدأت الآن تضغط على أصابعي.

«باتريسيا...».

«دلّكني يا ليو، إنك عزيز عليّ. ها هو الزيت».

«أريد أن أتحدّث عن أليسيا».

«من يريد أن يسمع عن هذا الأمر السخيف؟ حسناً، تكلّم، تحدّث عما تريد، ما دمت تُسعد روحي».

هبطت تنورتها إلى الأرض. سارت في الغرفة، وضعت الزيت، واستلقت فوق منشفة على سريرها الواطئ.

كانت تراقبني وأنا أحك معدتي. كانت هناك بعض الأحاديث التي افتقدتها في هذه الحياة الجديدة. قد يكون لك جسد جديد، لكن إذا كان عقلك مثقلاً بالهموم فلن يكن الفرق كبيراً.

قالت: «تابع كلامك».

قلت لها كيف أن أليسيا تعاملني بلطف الأمر الذي يشعرني بالقلق. وأكّدت أنني لم أتعمد ذلك.

بالطبع كنت أحبّ اهتمام النساء في المركز، النساء اللاتي لم يكن لديهن في حقيقة الأمر شيء آخر يتطلعن إليه ـ وكن يتجولن حافيات، لا يرتدين سوى سروايل قصيرة. لقد زادت العزوبة من شبقي. لم أكن أريد أن أعيش كثيراً في عقلي. وتذكرت ما قالته مارغوت لي منذ سنوات عن رهاب المدرسة. فقد كان بعض الفتيان، وخاصة المصابون باختلال جنساني، يتخيّلون أن أجسادهم تتحوّل إلى قضبان ذكرية. كانت المدرسة المخيفة هي جسد أمهم المحرّم. وكان الجنس يغمرني ـ قضيب متحرك، جسد بذيل من قضيب. لم أكن أغازل، لم أكن مثيراً. لم أكن بحاجة لأن أفعل شيئاً.

وأصبحت في عقلي المجنون ممثلاً سينمائياً. إذ كان الكثير من أصدقائي ممثلين أو مغنين أو راقصين، رجالاً ونساء ممن كانوا يستخدمون أجسادهم في خدمة الفن، أو كالفن نفسه، الأشخاص الذين يُنظر إليهم بأنهم يكسبون رزقهم من الفن. أما البعض منا ممن لا يستطيعون أن يكونوا ممثلين، الذين يتخيّلون أن الجمهور يتفحص عيوبنا فقط، فهم لا يفهمون العلاقة بين الممثل والمشاهد جيداً، وكيف يمكن للجمهور أن يعيقك مثل بحر إذا لم تتمكن من استغلاله جيداً. ماذا ترى وتسمع هناك في كلّ ذلك السواد؟ ماذا يفعل المشاهدون لك؟ ماذا تفعل راقصة التعري أو أيّ ممثلة مشهورة أخرى سوى أن تزيد إحساسك بالحسد والرغبة والسيطرة عليهما؟ وبدا لي أن ذلك نشاط جنسي رائع.

مضت سنوات لم أرقص فيها. أما الآن فقد بدأت أرقص كلّ ليلة في مرقص من مراقص المدينة، مع نساء المركز. كانت أعمار معظمهن تتجاوز الأربعين، وكان بعضهن يتجاوز الخمسين من العمر. وكن يعرفن جيداً أن فرص أن يقع أحدهم في حبهن، وأن يُداعبن، وأن يكن مرغوبات، بدأت تقل رغم تأجج عواطفهن تحت الشمس اللاهبة. كنت أرقص معهن، لكني لم أكن ألمسهن. فلو كنت شاباً «حقيقياً»، فربما رافقت العديد منهن إلى الفراش، أو إلى الشاطئ. لقد كنت ممثلهن الخليع، مؤجج نار فروجهن. لكنهن جميعهن على الأقل كن يعرفن أين كانت تتوقف حدودي معهن.

عندما كنت أرقص عادة كانت أليسيا تراقبني، أو كانت تجلس على الكرسي تشرب وتدخن. لم تكن ترقص قط، لكنها كانت تستمتع في مشاهدة الآخرين مسرورين. وللغرابة فإن الموسيقى التي يحبها معظم الناس هي الموسيقى التي ظهرت في أيامي: الروك أند رول في الخمسينيات والجاز في الستينيات. كنت أعرف كلّ نغمة فيها. بدت أكثر ديمومة وأكثر عذوبة وجدة من العمل الأدبي الذي قمت به أنا ومعاصريّ.

وفي أحد مراقص الديسكو في المدينة، وبينما كنت أرقص مع

واحدة من تلك «الساحرات» كما كان يحلو لي أن أطلق عليهن، بدأ ينتقدني الكثير من الرجال المحليين. إذ لم يكن يعجبهم أن هذا الطفل المدلل يراقص ويعانق تلك النساء السعيدات ليلة إثر ليلة، فضلاً عن إني كنت أقوم برعاية حقائبهن، وأحضر لهن الشراب، وأحرص على توصيلهنّ جميعهن إلى المركز بسلامة. وفي إحدى الليالي، تحلقن حولي في الحانة، وقلن إنهن يرغبن في أن يرين أي نوع من الرجال كنته. كان بإمكانهن أن يكتشفن ذلك على الشاطئ، حيث كان بإمكاننا أن نتبادل حديثاً جيداً. وكان على أليسيا والأخريات أن يرافقنني لنخرج من هناك في مجموعة. وعندما كنت أنظر إلى الوراء، كنت أرى الرجال يقفون عند الباب، يدخنون ويضحكون باستهزاء.

لماذا حدث هذا؟ كيف رأوني؟ سألت أليسيا، كامرأة لديها كلّ شيء، بالإضافة إلى المستقبل. فقالت إنها تظن لأنه لم يكن ثمة شيء لم يكن بوسعي أن أفعله أو أن أكونه، وهم يمقتون ذلك ويرغبونه لأنفسهم. ومن الممكن أن يقتلوني ويلتهموني.

كانت هناك تصورات أخرى عني. لقد قالت امرأة في الخمسينات لأليسيا إني أجعل النساء يشعرن بالنقص. فقد كنت شاباً غنياً لا أحمل هموماً وأطوف العالم قبل أن أعمل في أحد المصارف. وقالت «إننا نحاول أن نستعيد حياتنا المضطربة هنا. قد بدأ يتماثل للشفاء».

«لعلك كنت ذلك الشخص حقاً» أردفت أليسيا، بعد أن أخبرتني ذلك، وألقت سيجارتها وراحت تفرك عقب السيجارة بصندلها. «لديك الثقة والاتزان والإحساس بأنك شاب غني. هل هذا صحيح؟».

لم أجب. لم أعرف ما أقول. فلم أكن أتوقع كلّ هذا الحسد. فقد كنت أعرف ممثلين أصبحوا نجوماً سينمائيين، واعتراهم الخوف وانكفؤوا على أنفسهم بسبب ثقل الحقد المتخيَّل الناجم عن الشهرة.

رحت أشتغل على جسد باتريسيا الذي كان يتلوى ويتموج،

وأنا أهمهم وأفكّر. كنت أجيد هذا، فقد تعلمت على الأقل أن أحبّ منح الراحة والمتعة للآخرين.

قلت: «كيف يمكنني أن أعالج هذا الأمر؟ فقد بدأت أشعر أنني شيء، وهو أمر ليس جيداً. إنه اضطهاد».

«إنك موضع حسد شديد»، قالت وجاء صوتها مكتوماً بسبب المنشفة. «إنك كالمرأة التي يرغبها الجميع لكن لا يفهمها أحد. إن ماتحتاجه هو الدعم والحماية».

«مِمَّن؟».

«هذا الأمر يعود لك. لكن يجب أن تطلبهما». وأضافت: «لا يبدو لي أنك ارتكبت خطأ، شيء غريب. لقد جعلتها تشعر هي وبعض الأخريات بالحنين إلى الحب، لكنك لم تضلل أحداً. إنك فتى جيد. فالنساء في عمر أليسيا يقعن في حبّ لوح من الخشب».

كنت أعمل جاهداً على جسد باتريسيا. ولشدة حيرتي وانزعاجي، كلما ازددت دعكاً وتمسيداً لها، لم يكن يبدو لي أن ذلك كان يجعلها تشعر بالارتياح والاسترخاء. بل إنها كانت تتنفّس بصعوبة أكبر.

استدارت، ومدت يديها وحلّت الرباط الذي يشد سروالي.

قلت: «أرجوك باتريسيا، لا تفعلي ذلك».

أمسكت قضيبي. «لديك هنا شيء جميل ضخم. هل تعرف كيف تستخدمه؟».

«لا، أظن أن بإمكانك أن تريني».

«ألم تنم مع أليسيا؟».

«هذا صحيح».

«إذاً فأنت فتى جيد حقاً. الآن كن فتى أفضل معي!»

كانت عيناها تشعان شهوة.

قلت: «ظننت أنكِ إمرأة حكيمة».

«حتى الحكيمات يحتجن إلى قضيب بين الحين والآخر. إنك ترمش لي بأهدابك منذ أيام، أتظن أني لم ألحظ ذلك. إن حدسي قوي. والآن هل تستطيع أن تكمل؟».

لم أشأ أن أخيب أملها. إذ لم أكن أريد أن تشعر بعمرها أو أن تستاء مني.

كانت يداها خشنتين، وفي لحظة تساءلت إن كان عليها أن تضع قفازات. فقد تذكّرت أنها كانت تحب أن تبني جدراناً بالحجارة. لكن لدهشتي شعرت بالإثارة والهياج.

كانت الأصوات والجلبة التي تصدرها صادقة ومباشرة. كنت أجلس قبالتها. كنا نرتعش. أحبس أنفاسي. لكنها قالت تأمرني: «تنفّس، تنفّس». نفذت ما أمرتني به. ثم أردفت قائلة: «استرخ، وتنفّس من معدتك، هذه هي الطريقة التي ستجعلك تصمد فترة أطول». فعلت ذلك بالطبع. عندما استرخيت قالت: «تابع الآن».

وصاحت باتريسيا «حبنّي، حبّني، أيها الحقير!» وغرزت أصابعها في لحمي. خدشتني ورفستني، وعندما أتتها النشوة دفعت لسانها في فمي حتى تسكتني.

«كنت بحاجة إلى هذا»، قالت أخيراً. كانت تستلقي على السرير، وساقاها منفرجتان، تلهث بحرارة. «يا ولدي العزيز، اجلب لي قدحاً من الماء».

أحضرته لها.

«شكراً، لقد قمت بعمل جيد، أليس كذلك؟»

جلست على طرف السرير وقلت: «يمكنكِ الآن أن تديري حلقة عمل عن رعشة الجماع».

قالت: «الكثير من النساء هنا يعتقدن أنك شاب متعجرف. أنا لا أبالي بذلك. إني أحب ذلك. يمكنني أن أجعلك متواضعاً».

قلت: «شكرا يا باتريسيا. أظن أنك فعلت ذلك. من الأفضل لي أن أذهب الآن».

قالت: «وشيء آخر».

فتحت باتريسيا ساقيها، ومن طرف السرير، جعلتني أراقبها وهي تداعب نفسها. كان يبدو لي أحياناً أن يدها كانت تختفي كلها في جسدها، كما لو أنها كانت توشك على أن تُخرج ما بداخلها.

«أراهن أنك لم تر هذا من قبل»، دمدمت.

«لا»، قلت بحدّة. «يعيش المرء ويتعلم».

كانت تريد أن تنام. أشارت إليّ بأن أبتعد، لكن ليس قبل أن تقول: «عد الليلة. أحضر معك أشياءك. سيكون كلّ شيء أفضل إذا جئت وعشت هنا».

«لماذا تريدين ذلك؟».

«هذه أفضل غرفة في القرية. أراك الليلة».

انطلقت واجتزت الساحة. نادتني أليسيا، أمسكتني وشبكت ذراعها بذراعي.

«أما زلتِ هنا؟».

«لم لا؟».

«أليسيا، أريد أن أذهب إلى الشاطئ».

«هل أنت على مايرام؟ هل يمكنني أن أرافقك؟».

لم أشأ أن أجعلها تجري خلفي، لكني كنت بحاجة لأن أغتسل. كنت أعرف أنها كانت ما تزال هناك لأنها كانت تلقي قصائد بصوت مرتفع ـ ليست قصائدها ـ وعندما مضينا راحت تذكرني بالأشياء الجيدة.

خلعت ثيابي وهرعت إلى البحر. سبحت، وهرولت على الشاطئ ثم عدت أسبح حتى أحسست بالإرهاق. استلقيت إلى جانبها تحت

الشمس. وسرعان ما غفوت. عندما فتحت عينيّ كانت جالسة تدخن سيجارة، وذراعاها معقودان على ركبتيها. وبخلاف النساء الأخريات في المركز لم تخلع ثيابها أبداً، بل كانت ترتدي دائماً بلوزة بأكمام طويلة وتنورة طويلة تصل إلى كاحلها.

«ماذا في الأمر؟».

«لقد نمت معها»، قالت وهي تسحب نفساً من سيجارتها. «سيكون نصف سكان الكرة الأرضية قد سمعوا بهذا الآن».

«لكن لم لا تغلقين أذنيك».

«كنت أنصت إلى موسيقاك. كلّ نغمة فيها».

«ماذا ستفعلين بما سمعت؟ هل ستكتبين عنها ـ أم أنك تعتبرين ذلك شيئاً إنسانياً جداً؟».

«إذا كان ذلك كلّ ما أستطيع أنه أفعله فإني سأكره نفسي!» أخذت يدي ووضعتها على قدمها، ثم قالت: «هل ستنظر إليّ؟ لا نستطيع أن نمارس الجنس. إنك لا تريد. فلعلك حصلت على أكثر من كفايتك لهذا اليوم. أنا لا أعرف ما هي رعشة الجماع، فأنا عذراء. المسني إن أحببت». استلقت. «أليس كذلك؟».

بعد تجربتي السابقة لا يمكنني أن أدّعي أنني مستغرق في الإثارة الجنسية. بدأت أدلكها براحة يديّ. وعندما بدأت أداعبها بأصابعي أغمضت عينيها. بدأ عقلي يشرد.

«أريد أن أستعير هذا».

أمسكت دفتر ملاحظاتها وقلمها ورحت أحصي ما وجدته على بشرتها. كنت قد فعلت ذلك، كما يقولون في التلفزيون، بدون ترتيب معيّن. اتجهت مباشرة إلى ما يثير اهتمامي.

كان أول شيء لاحظته شعرة بنية فاتحة على حنجرتها، شعرة من رموشها. ووجدت على جبهتها بقعة جافة، وبثرة ممتلئة قيحاً، وبقعاً أخرى عديدة تحت جلدها. بدا شعرها كما لو أنه قد صُبغ منذ

فترة من الزمن، فقد ابيضت أجزاء منه بفعل الشمس. وكان يصعب عليّ أن أعرف لونه الأصلي. كانت شفتاها مائلتين قليلاً ومنفرجتين. الشفة السفلية أكثر ميلاً وانفراجاً من الشفة العلوية.

ورأيت كدمة أرجوانية حديثة العهد على خاصرتها، فلعلها اصطدمت بمنضدة. وعلى ركبتيها كانت هناك ثلاث ندب صغيرة من بقايا الطفولة. مررت أصابعي على طول الندبة التي ما زالت زرقاء باهتة. وخمّنت أن مرارتها مستأصلة. كانت خمسة أظافر في إحدى قدميها مطلية بالصباغ، جميعها مقلّمة، وخمسة أظافر في القدم الآخر غير مطلية: أظن أنها أحست بالملل وهي تطليها. وكانت هناك حبات كثيرة من الرمل، الجاف في الغالب، بين أصابع قدمها وعلى باطن قدميها ومشط قدمها.

كانت تضع أقراطاً فضّية رخيصة، لكن خيّل لي أنها لم تكن تبدي اهتماماً كبيراً بزينتها الشخصية. وكانت شحمة إحدى أذنيها ملتهبة قليلاً. كما وجدت ورقة شجر على ساقها، وبضع حشرات، ميتة وحيّة، في أماكن مختلفة، وبقع من الوحل على ساقها. كان الجلد حول أظافر أصابعها مسحوباً وممزقاً. ولم تكن ساعة يدها الرخيصة تشير إلى الوقت الصحيح. وبدت أسنانها جيدة، لعلها استخدمت قالب تقويم عندما كانت طفلة، لكنها كانت ملطخة الآن ببقع صفراء بسبب التدخين، وكان أحدها مكسوراً. كان ثمة خدش عميق على ذراعها (الأيسر)، كنت قد لاحظته من قبل لكني لم أعره اهتماماً. وبدا أنها خدشته بألة غير حادة ـ ربما بسكين صغيرة أو شفرة حلاقة ـ كما لو أنها قررت أن تعبث بنفسها على نحو ارتجالي، دون أن تتهيأ لذلك.

نظرت إلى أذنيها وفمها، ثم بين ساقيها وأصابع قدميها حيث اكتشفت حشرة أخرى. نظرت إلى أنفها ـ لمفأجاتي كان خالياً من الشعر، بالمقارنة مع أنفي ـ ورسمت على صدرها كلمة خيّل لي أنها كلمة «شاعر». وخططت على فخذها كلمات أخرى.

كتبت بالأسلوب الحديث المغفل: «ثمة شخص هنا، ومضطجع الآن». كتبتها بطريقة جدلية ثم استغرقت في صمت لمدة ساعة. أبقيت الحشرات الميتة، وورقة الشجرة، وشعرتين من شعر عانتها، مثال على الوساخة، وبقعة من الدم ومخاط مهبلي، وسجلّ من الكلمات، داخل دفترها. كانت عيناها في غالب الأحيان ناعستين، وكان نَفَسها عميقاً وطويلاً.

أيقظتها من حلمها، وأريتها ما كنت أفعله.

«لم يفعل أحد لي شيئاً ألطف من هذا»، قالت.

«يسعدني أن أفعل ذلك».

«قلت لي ذات يوم إن الناس يرغبون في أن يصبحوا معروفين. هل يمكنني أن أسألك: ما هي تلك الندبة على جسدك؟»

«أية ندبة؟ أين؟».

نظرت إليّ كما لو كنت غبياً قبل أن توضح لي الأمر. كانت الندبة تحت مرفقي، في اللحم الطري.

«ألا تعرف ما هي؟».

«لعلي أعرف»، قلت غاضباً. «حتى أنني لا أتذكّر من أين جاءتني».

«أنت لا تريد أن تعرف نفسك. إنك لا تعرف نفسك كما أنك لا تعرفني. أنا لا أفهم ذلك. لو كنت أنت نفسك تعرف لما فعلت ما فعلته مع تلك المرأة».

«لا أرى سبباً يدعونا لأن نعرف أنفسنا أو يعرف أحدنا الآخر».

«لكن أيوجد شيء آخر هناك؟»

«أن يمتّع أحدنا الآخر».

«المعرفة متعة بالنسبة لي».

كان هذا هو نوع الجدال الذي يدور بيننا. ثم كنا نلوذ بالصمت.

شاهدت في البحر يختاً كبيراً ومراكب صغيرة تنقل بعض المواد إليه. ونسيت أن دعوة قد وجهت إلى جميع أعضاء المركز لحضور حفلة ستقام على متنه في ذلك المساء. لم أنتبه كثيراً حينئذ، لكن كانت هناك إشاعات كثيرة عن صاحب اليخت. فقد كان إما رئيس عصابة أو منتج أفلام أو أحد الأثرياء من تجار الكمبيوتر. لم أكن متأكداً أيها الأسوأ. فقد أعلنت باتريسيا عند الفطور إننا مدعوون جميعنا. كنت أنوي ألا أذهب، لأني لم أكن أتوقع أن تلاحظ باتريسيا غيابي. كم تغيّرت الأشياء منذ ذلك الحين!

ألم تقل لي منذ ساعات «سأراك الليلة!».

لا أستطيع أن أتحدّى باتريسيا وأبقى في المركز. وإذا كان عليّ أن أغادر يجب أن أعرف إلى أين سأذهب.

ودعت أليسيا وصعدت إلى السطح لأفكّر في الأمر. واكتشفت أنني أصبحت أشد غضباً من قبل لما فعلته لي باتريسيا، وغضبت من نفسي لأني لم أتمكن من الهرب دون أن يلاحظني أحد. سأصرّ على النوم وحدي الليلة، وأتوجّه إلى أثينا على أول مركب. حزمت حقائبي استعداداً لذلك. كنت شاباً يافعاً وكان بإمكاني أن أهرب.

5

ذهبت لأتناول طعامي في إحدى الحانات في البلدة، ورحت أقرأ وأنا جالس إلى المائدة. وبعد أن قرأت بضع صفحات، قلت لنفسي «يمكنني أن أفعل هذا». أخرجت بضع أوراق من حقيبتي وبدأت أكتب قصة خطرت لي على الفور. كانت عن شيء كنت قد رأيته، أو فكّرت به ـ كاد يكون شيئاً مرئياً إلى درجة أني كنت أرغم نفسي على إيجاد الكلمات المناسبة. كانت يداي ترتعشان، فبدون الأدب لم يكن بوسعي أن أفكّر، وبدأت تخنقني دوّامة الأفكار التي لم توصلني إلى أي مكان جديد. لكن الكتابة وتعقيدات عزلتها هي ما كنت أحتاج إلى اقتحامه لأبتعد عن نفسي. إذ يعود بعض الفنانين في حياتهم الثانية، ويصبحون هم أنفسهم إلى درجة كبيرة، ويمضون في طريقهم، بحيث لا يعود لهم تأثير، ويأخذ عملهم طبيعة الهوس. فقد قالت لي مارغوت ذات يوم: «عندما تفكّر أو تشعر بشيء مهم أكتبه بدلاً من أن تقوله. أحبّ أن أراه يتدفق على شاشة حاسوبك».

لقد تم ذلك. نحيّت قلمي وورقتي جانباً، ودفعت الحساب وغادرت.

كانت الأصوات في المركز، التي تحتدم عادة، تكاد تكون صاخبة. واحتشدت جميع النساء ما عدا باتريسيا التي لم تصل بعد، وكنّ يرتدين تنورات وفساتين ودثارات زاهية الألوان. ووضعت بعضهن خلاخيل في كواحلهن، وكانت الكثيرات يرتدين حمالات

صدر. كان النسيم الليلي اللذيذ يختلط بالعطور الأنثوية، والمجوهرات تتلألأ وتصدر رنيناً وجلجلة. وكان الحماس للحفلة على اليخت شديداً إلى درجة أن بعض الحضور أخذ يرقص في الحال.

كنت أرتدي بنطالي القصير العادي وقميص تي شيرت أبيض. لقد اشتريت هذا الجسد لأني أحببته، لأنه كان نموذجاً رائعاً، ولم يكن بحاجة إلى أية تعديلات أو تحسينات.

ضحكت عندما رأيت أن أليسيا حاولت أن تمشط شعرها، فجعلته يبدو مجعداً أكثر مما كان من قبل. فقد بدت من خلال الضوء في خلفيتها كأن عليها هالة. كما وضعت أحمر شفاه، وهو شيء لم أره عليها من قبل. كانت تبدو وكأنها تحاول أن تكون امرأة.

«كنت أخشى ألا تأتي»، قالت.

أجبت: «وأنا كذلك».

«ها نحن هنا الآن».

«هكذا يبدو».

إن تميّزنا جعل كل منا يبدو كأنه متمرد، كما لو كنا نرفض الدخول في روح الأمسية، حيث كنت هكذا، للأسف، عندما كنت شاباً ـ متمرداً. وبدا أن أحداً لم يلحظ ذلك. وعندما وصلت الأميرة باتريسيا وهي تضع ربطة عنق طويلة ـ تنورة مصبوغة، ووردات في شعرها ـ أضحى من غير الممكن مقاومة إغراء الحفلة.

عندما دخلت باتريسيا قلت لأليسيا، «لم أكن أعرف أننا كنا نحضر فيلماً سينمائياً».

ساد الهدوء بعد أن دخلت. اتجهت نحوي وطبعت قبلة على شفتي، وربتت على وجهي ولعقت شفتيها، وتجاهلت وجود أليسيا.

«هل أنت مستعد؟».

أمسكتني من ذراعي وسحبتني معها وطلبت من الآخرين أن يتبعوها. كان الأمر واضحاً. فقد أرادت أن تحضر الحفلة البحرية لأنها كانت تريد أن تتباهى بي أمام الجميع.

سرنا أنا وباتريسيا إلى ما أصبح نوعاً من الموكب عبر القرية إلى الشاطئ. وراح الرجال المسنون، الجالسون إلى المناضد في المقهى يراقبوننا ونحن نمر من أمامهم، ولم يبد أننا كنا من عصر آخر فقط، بل كنا نبدو نوعاً آخر من البشر.

حيّتنا فرقة موسيقية على الشاطئ، حيث كان يتجمع عدد من الأجانب الذين قدموا من الجزيرة. وعلى مسافة بعيدة كان يرسو اليخت. الشيء الوحيد المتلألئ في المحيط المظلم، يتألق تحت النجوم. ورغم اهتمام باتريسيا فقد كنت سعيداً لكوني هناك.

حملتنا مراكب صغيرة إلى اليخت. جلست باتريسيا إلى جانبي وأمسكت يدي. «إني أهتز طرباً منذ مضاجعتنا تلك. إنك أنت ما أبحث عنه وأحتاج إليه تماماً». قالت وظلت منحنية عليّ.

«باتريسيا...» كنت على وشك أن أخبرها بخجل، بأنني لم أكن أرغب في أن تمضي الأمور بهذه السرعة. «أظن أننا!».

قاطعتني قائلة: «إنك لم تتغير... لا تتحرك. دعني أضع هذا». كانت تعبث بأذني. «الآن أصبحنا نضع أقراطاً متشابهة». ربتت على وجهي. جلست وأخذت تنظر إليّ.

لمست أذني. قلت: «أوه، نعم. لا بدّ أني نسيت أنني كنت قد ثقبتها».

قالت: «توجد عدّة ثقوب. يالك من فتى مضحك. لقد راقبتك وأنت ترقص. إنك ترقص بشكل رائع. لا بد أنك تدرّبت في مكان ما».

«هذا صحيح».

«أين؟»، تابعت، «هل سترقص معي طوال الليل؟».

«ليس طوال الليل ياباتريسيا».

أخذت يدي ودستها بين فخذيها. «معظم الليل إذن يا فتاي العزيز».

ساعدونا في الانتقال من المركب إلى اليخت. وحيانا صاحب اليخت الذي يدعى مات من على سطح اليخت. كان شاباً حادّ الطبع.

قال: «شكراً يا باتريسيا لأنك أحضرت جميع أصدقائك! أهلاً بكم حميعاً». وراح يلوّح للنساء وراءنا «هيا أيتها الفتيات! لنبدأ».

وفيما كنا نتجول في المركب بدأت الفرقة تعزف معزوفة «هكذا تكلم زرادشت» لشتراوس بنسخة فون كاراغان. إني أعشق ريتشارد شتراوس، لكني مستعد لأن أقرّ كم تحولت الموسيقى العظيمة إلى موسيقى سوقية هابطة. أين يمكن للمرء أن يعثر اليوم على شيء جديد أو غريب؟ إذ لم يعد بإمكانك أن تستمع إلى رباعيات بارتوك أو تأملات فيبيرن بسهولة.

والغريب أن شتراوس لم يبدُ شاملاً فقط في وسط البحر والسماء، في هذا المكان، حيث كنت أعتقد أنه أفضل مكان للاستماع للموسيقى. ففي صباح أحد أيام السبت، وبعد أن كنت قد استمعت إلى كالاس، دخلت في مرحلة من الذهول ـ فتنتني ورفعت معنوياتي ثانية.

هذا ما كنت أصبو إليه عندما كنت شاباً.

بدا أن الطعام والشراب وإمكانية ممارسة الجنس أشياء لا حدود لها. وكان الموظفون الذين يعملون لدى مات والذين يرتدون بدلات رسمية، يتجولون ويحملون صواني، كان على بعضها ألعاب جنسية وواقيات ذكرية. وكان يوجد مرقص وفرقة موسيقية. بدا أن الأشخاص على اليخت من الماجنين الأمريكيين والأوروبيين والبريطانيين، وكان هناك عارضات، وممثلون، ومغنون، وباحثون عن المتعة، وأرستوقراطيون كسالى. وكان هناك أشخاص أيضاً عرفت أنهم صحفيون بريطانيون، نجوم

الموسيقى الشعبية (البوب) وشركاؤهم، وممثلون لمسلسلات تلفزيونية. كان هؤلاء يضعون نظارات شمسية فخمة، ويتمتعون بأجساد رائعة ـ وخمّنت أنّ أجزاء مختلفة من أجسادهم تنتمي إلى مختلف الأعمار والمواد ـ وكان يبدو أنهم يحبون أن ينظر الآخرون إليهم.

لكزتني أليسيا وقالت: «أحدهم يحدق فيك».

كانت هناك صبية تنظر إليّ حقاً. ابتسمت، وتلقيت تلويحة خجولة منها.

قالت أليسيا: «كالعادة، فإنك زير نساء. هل يمكنني أن أسأل من هي؟».

«لا أعرف. تبدو كأنها نجمة سينمائية».

«هل تعرف نجوماً سينمائيين؟».

«طبعاً لا، لكنهم جميعهم يعرفونني». لوّحت للمرأة. «هيا».

تمشّينا في المكان. وأعطت أليسيا انطباعاً جيداً عن الأميرة مارغريت في عز أيامها. لم نكن أنا وأليسيا ـ على الأقل ـ متأكّدين إن كانت ستقاوم أو سيغمى عليها عندما ترى هذا الكم الهائل من الذهب. قالت أليسيا إنها تحب الطريقة التي يبدو فيها الإنكليز اللندنيون ساخرين، وأنها تكره أن تبدو ساذجة، بينما كنت أجد أن ذلك شيء مضجر. لقد أردت أن أحبّ الأشياء في هذه المرّة.

عندما ذهبت أليسيا لإحضار شراب لها، هرعت نحوي النجمة السينمائية التي لوّحت لي منذ قليل.

«أليس من الغريب أن أراك هنا»، قالت وقبّلتني.

قبّلتها. كان عليّ أن أفعل ذلك. لكني كنت أخشى إن كانت تعرفني باسم «مارك». فربما كنا زوجين. أقسمت أنني عندما رأيت رالف قادماً أن أضع حداً لخلوده.

«ألا تعرفني؟».

نظرت إليها حتى تراءت لي صورة في مخيلتي. فقد كانت صورة امرأة عجوز تجلس في كرسي للمعوقين، ترتدي فستاناً من الفانيلة وردي اللون. كنا قد اكتسينا أنا وهذه المرأة جسداً جديداً في اليوم ذاته. أي إننا في عمر واحد.

قلت: «يا لها من فرصة رائعة. كيف تجدين ذلك؟»

«لا أعرف. حيثما ذهبت يحاول الرجال أن يتلمسوا جسدي أو ينالوا وطرهم مني. وإذا لم أمتثل لرغبتهم يصبحون وقحين وشريرين. ومع ذلك فأنا لا أريد أن يتشاجر الرجال من أجلي حتى لو أصبحت كومة من الرماد».

«أوه، لا أعرف ذلك. وماذا ستفعلين غير ذلك؟»

قالت: «لدي عقد تسجيل، وأنت؟».

«غريب، كما لو كنا أشباحاً».

تطلعت حولها وقالت: «أعرف. استرخِ الآن. هناك آخرون مثلنا هنا. الآخرون سخيفون وفاقدو البصر».

«كم عدد الآخرين من أمثالنا؟».

تطلعت إلى الوجوه والأجساد وراءها. كيف لي أن أعرف من هو هذا أو ذاك؟

«أكثر مما تظن. إننا نلعب التنس، ونسهر حتى وقت متأخر من الليل ونحن نلعب الورق، نتحدّث عن حياتنا. لدينا الكثير من الوقت. مثل نجوم غناء البوب والعائلة المالكة، إننا نتآزر معاً».

فكّرت بهن، تلك الجميلات المتحلقات حول إحدى الطاولات، اللاتي يشبهن تماثيل متحركة، عمل فني رائع.

قلت: «سرعان ما سيعرف كل من في العالم».

«أوه، نعم، أظن ذلك. وهل هذا يهمّ؟ تعال لنتحدث في وقت لاحق». كانت تنظر إلى قدميها. «هل أصبحت تحبّ جسدك الآن؟».

«ولماذا لا أحبه؟».

«أنا طويلة بعض الشيء وخصري غليظ جداً، وقدماي كبيرتان. على العموم فأنا لا أشعر بالارتياح».

تركتني عندما عادت أليسيا. «تقول إنك لا تعرف هذه المرأة. هل ستذهب معها الآن؟».

«أذهب إلى أين؟ لا أعرف عم تتحدّثين».

لكن أليسيا قالت: «يمكنك أن تذهب معها إن أردت، ما زال هناك متسع من الوقت. لقد بدأنا الإبحار».

«الإبحار إلى أين؟».

كانت أليسيا تسخر مني. «لا أعرف. لكني أعرف أن الإبحار هو الشيء الذي تقوم به القوارب. سنبقى هنا حتى الفجر».

ركضت إلى جانب المركب. كنا بالفعل نتحرك. وخطر لي أنه لن يكون بوسعي أن أهرب في أي وقت. فكرت بالقفز إلى البحر، لكني لم أكن واثقاً من قدرتي على السباحة كل تلك المسافة. غير أن باتريسيا كانت بجانبي طوال الوقت. وكان يبدو أنها تصرّ على أن أبقى بجانبها طوال الليل. لا إلى جانبها فقط، في واقع الأمر، بل ضمن مسافة التلامس.

أخذت تلمس كتفي وتفركه. «لم أر مثلك في حياتي. إني أبحث عن شخص مثلك. لم أدع نفسي ألمس شخصاً من قبل كما أفعل الآن». أصبحت يدها في مكان ما من رأسي. «من أين لك هذا الشعر الجميل؟».

كدت أقول لها: «لقد رأيته في ثلاجة واشتريته، مع كلّ الأشياء الأخرى التي تشاهدينها الآن!» تساءلت إن كان ذلك سيهمها. الآن

عرفت شيئاً على الأقل. إن العالم مختلف للجميلين. إنهم مرغوبون، أوه نعم، فالأجساد الأخرى جميعها ترغب بهم. لكنهم لا يحبّونها بالضرورة.

«تعال وانظر إلى هذا»، قالت باتريسيا دون أن تنظر إلى أليسيا، «شاب يهمك».

سرت وراءها في اليخت حتى وصلنا إلى باب إحدى القمرات. دفعته. كانت الغرفة في الداخل تكاد تكون مظلمة تماماً.

دخلت. استغرقت عيناي دقيقتين حتى تتكيفا مع الظلمة. كان هناك ما يقرب من ثلاثين شخصاً عارياً في الغرفة، وكانت نسبة الرجال أكثر من النساء. وفي إحدى الزوايا تكومت تلال من الأجساد بشكل رومانسي، يتشابك أحدها في الآخر. وكان من الصعوبة بمكان أن تعرف أي جزء يعود إلى أي جسد. تساءلت إن كانت بعض الأطراف قد أصبحت مستقلة عن أجسادها، وتحوّلت إلى مخلوقات بحد ذاتها. أذرع ترقص مع سيقان، ربما، ولعل الجذوع بقيت وحدها. كانت هناك موسيقى تصدح، أحاديث ـ وضوضاء وحيدة ـ أصوات متعة الآخرين.

سحبتني باتريسيا من قميصي وقالت: «لننضم إليهم».

قلت: «إني أشعر بالغثيان، فأنا لست معتاداً على... الحركة».

«إلى أين ستذهب؟».

أسرعت عائداً عبر غرف وممرات وطوابق اليخت، أبحث عن مكان لا يمكنها أن تجدني فيه لبعض الوقت. ولمدة طويلة كنت اسمعها تناديني باسمي.

عثرت على حجرة صغيرة. فيها شموع تحترق، وموسيقى من شمال أفريقيا تعزف، تتناثر فيها مساند شرقية وستائر وبسط والكثير من المخمل. وجدت متعة في هذا الأسلوب الذي ذكّرني بالستينيات.

لقد أحببت اليخت. لماذا لا يمكنني أن أحصل على وظيفة كعامل على سطح اليخت؟ لكني شعرت بالضيق لمغادرتي المركز، حيث توقّعت أن أمضي بقيّة وقتي في هذا الجسد. أحسست بالضيق من الناس فيه. لم يعد مكاناً مريحاً. ومهما حدث الليلة سأغادر الجزيرة في الصباح، وأستقل أول مركب وليذهب حيثما يذهب. سأذهب إلى جزيرة أخرى وأجد عملاً في حانة أو مرقص.

سمعت وقع خطوات. لم تكن خطوات باتريسيا، بل مات، صاحب اليخت، الذي كان يرتدي شورتاً، وقميصاً فاتح اللون وصندلاً مطاطياً.

«ماذا تفعل هنا بحق السماء؟»

«هل أنا في المكان غير المناسب؟» نهضت. «لقد أردت أن أجد غرفة هادئة. فكل شيء في فوضى وكنت أحتاج إلى أن أبتعد وأخلو بنفسي».

اتجه نحوي وراح يحدق في عينيّ وقال: «دائماً اسأل أولاً».

قلت: «لو مُنحت غرفة لكانت كهذه. إن طراز تأثيثها يشبه فترة منتصف الستينات، الفترة التي طالما أحببتها».

«حسناً. هل تريد كأساً من النبيذ الآن؟».

«إذا لم يكن لديك مانع. لقد عرفّنا أحدهم على بعضنا، لكن إن كنت قد نسيت فإن اسمي ليو».

قال: «مات. لماذا شخص في عمرك يهتمّ بالستينيات؟».

«لا بد أنه شيء يتعلق بأبويّ. وأنت؟».

أحضر لكلينا كأساً. «في تلك الأيام كان الناس يعرفون كيف يضحكون. إلا إذا كنت في العمر الخاطئ!».

منحني أسلوبه في الكلام انطباعاً بأن الإنكليزية ليست لغته

الأولى، لكن كان يستحيل عليك أن تحزر من أي بلد هو. وكنت أميل للقول، إذا ما سئلت، بأنه لا ينتمي إلى أي مكان.

«هل هذا يخت أبيك؟».

تشنج جسده وقال: «لماذا يجب أن يكون لأبي بحق السماء؟».

«إني أسأل، هل هو من أملاك العائلة؟».

قال: «أكره أن يوحي الآخرون بأنني لا أعمل، ولست إلّا مجرد شاب غني مستهتر يجري وراء ملذاته ومتعه. إني ألعب بأشياء عديدة ـ فأنا ألعب لعبة زير النساء ـ لكنها للمتعة وليست مهنة».

قلت: «آسف. إنك لست أول شخص يعتبرني أحمق. سأخرج الآن».

جرى ورائي وأعادني بفظاظة. «انتظر هنا. يجب أن تبقى الآن».

«لماذا؟».

«أظن أني أعرفك من مكان ما».

«كيف يمكننا أن نلتقي؟ فأنا لست معلماً ولا طالباً، مجرد عامل تنظيف في المركز في الجزيرة».

«هل كنت عامل بناء؟».

«لا».

«سائق حافلة؟».

«لا».

«لقد رأيتك»، تابع كلامه وكوّر عينيه «ليس وجهك فقط الذي أعرفه». وراح يدور حولي، كما لو كان نحاتاً. قال: «سأتذكر».

«هل أنت متأكّد؟».

«قد أبدو مثل أبله كثير الشعر، لكني أتمتع ببصيرة نافذة وذاكرة ممتازة».

بدأت أشعر بالتوتر. بل حتى شعرت بتوتر أكثر من باتريسيا. قسم لي قطعة كبيرة من الكوكايين وقدمها لي.

قلت: «شكراً».

أخذ يشمّ قطعة عندما سمع طرقاً على الباب. كان أحد العاملين التايلانديين. توجه إليه مات، ثم ولدهشتي اتجه نحوي.

«قيل لي أن امرأة تدعى باتريسيا تبحث عنك».

«أوه يا إلهي».

ضحك مات، ثم استدار إلى الرجل وقال: «لم يجده أحد حالياً. إنه متوعك». أغلق الباب وأضاف: «إنها تلاحقك، إيه؟ إنها تريد جسدك».

«لعلي أقدّر تقديرها لي. فسيأتي وقت لا يريد فيه أحد أن يقفز فوق عظامي الهرمة».

«الشيء الوحيد الذي لا يرغب أحد أن يراه هو أنه يتقدم في العمر، أن يرى بشرته تذوي وتمتلئ بالبقع».

«لماذا؟».

«أنا أنتمي إلى عائلة كبيرة. عندما كنت طفلاً كنت أكره جداتي وعمّاتي وجميع الرجال المسنين والنساء العجائز الذين كانوا يقبلونني. كانت شفاههم وأفواههم وأنفاسهم فوقي ـ تجعلني أفقد الشهية لتناول طعامي».

قلت: «أتذكّر خديّ جدتي ويديها، بلوزتها، رائحتها، لا شيء سوى الحبّ. لقد تعلّمت الأشياء التي كانت تجعلني أشعر بالأمان. على أية حال، فإنك لم تكبر في السن بعد، فكيف تعرف أنك لن تحب ذلك؟».

«لم أمت بعد ولم أقم بزيارة مقبرة نورثامبتون. ما أعرفه هو أنهم لن يوافقوني».

لم يتوقف عن التحديق فيّ كما لو كان هناك شيء يريد أن يعرفه أو يسألني عنه.

قلت: «سأبقى هنا دقيقة وبعدها أريد أن أرتاح قليلاً».

«لك ما تريد. فأنا لديّ حفلة ويجب أن أرعاها».

«صحيح».

استدرت لأنظر إلى البحر المظلم، راجياً أن يكون قد ذهب عندما أعود. سمعته يقفل الباب. قبل أن أتمكن من أن أفتح فمي، تلقيت ضربة وفقدت توازني.

غريزياً تخيّلت أن مات هو الذي ضربني من الخلف، موجهاً إليّ ضربة قوية بقبضته خلف رأسي. هكذا أحسست. لكنه طوّق رقبتي بذراعه، وركل ساقيّ وباعدهما، ثم أرغمني على أن أجثو على ركبتيّ. قلت لنفسي: الآن سيطلق النار على مؤخرة رأسي. وخلال هذا تذكّرت، على نحو خاطئ عبارة قالها ويبستر: «أفضل جميع الوفيات، الموت العنيف».

«ماذا تفعل؟».

«أغلق فمك يا ليو! إذا لم تتحرك وبقيت ساكناً فلن ألحق بك الضرر».

«ألبث ساكناً من أجل ماذا؟».

أخذ يفتّش في شعري، بذات الطريقة التي كنت أمسك فيها أطفالي وأفحص رؤوسهم بحثاً عن القمل. قلت: «لم يخطر ببالي أنك مجنون».

«ماذا قلت»، قال، وقد أرخى قبضته ثم أضاف: «لقد وجدت العلامة».

«مـارك؟».

«ألم تعرف؟ أعتقد أنهم يريدون أن يظنوا أنها بدون قطب. يمكنك أن تنهض الآن. كم عمرك حقاً؟ لا حاجة لأن تتظاهر. أنا في حوالى الثمانين. إنه عمر جيد بالنسبة للرجل، ألا تظن ذلك؟».

همهمت قائلاً: «إنك تبدو في صحة جيدة».

«شكراً. وأنت كذلك».

6

قال: «العجوز يولد مرتين».

«العجوز فتى مرتين؟».

«صحيح. لقد تدربت على المصارعة والملاكمة والركل». ورفع يديه. «إنها رياضة رائعة. سأريك بضع حركات في ما بعد».

مسحت وجهي وقلت: «أظن أني بدأت أفهم».

لكني دفعته مرتين بسرعة، فوقع على ظهره. استشاط غضباً. للحظة خطر لي أننا سنتصارع. كنا سنتمتّع بذلك. لكنه قبل أن يتمكن من الرد، أنزلت يدي ورحت أضحك، لذلك انحصر الأمر في ما إذا كان سيفقد أعصابه أم لا.

لم يفقد أعصابه، بل فتح خزانة تضم شاشة تلفزيون. فتحها وحوّلها إلى قناة تُظهِر غرفة الجنس الجماعي. رأيت أليسيا ترقص وحدها، عارية. وبدت أكثر حرية مما شاهدتها من قبل.

«هل تريد أن ترى هذا؟ أم تفضّل أن تنتقل إلى شخص مريح ـ عندما انتهي منك».

«لا هذا ولا ذاك».

«ولا أنا»، قال. «لا شيء جديداً بالنسبة لأناس مثلنا. إن إثارتنا تستغرق وقتاً طويلاً ـ هذا إذا كان ثمة شيء يثيرنا».

«ماذا هناك من أشياء أخرى؟ لماذا فعلنا هذا؟».

«لكن هناك شيئاً آخر لا تعرفه؟»

«إذا أردت أن تتجشم عناء إخباري به» قلت.

«القتل. إنه أروع شيء، أعمق شيء. ألم تجربه بعد؟» هززت رأسي نفياً. «يجب على المرء أن يجرب كل شيء. ألا تظن ذلك؟»

قلت: «لم يضربني أحد هكذا في حياتي».

«يا للعار».

«لماذا فعلت ذلك؟».

تحسس رقبتي وصدري ومعدتي. «كنت قد اخترت هذا الجسد بنفسي، لكني كنت أريد شيئاً أوسع قليلاً، وأجمل بعض الشيء. فوجئت أنه بقي هناك لمدة طويلة. ومع ذلك كان عندهم عدة اختيارات ممتازة من الأجساد الجديدة. كان سيبدو جميلاً وجيداً عليّ. إنه لا يبدو سيئاً عليك. كيف تشعر؟»

حرّكت أطرافي قليلاً. «جميل ـ إلى أن هاجمتني».

«منذ متى حصلت عليه؟».

«لم يمض عليّ ثلاثة شهور بعد».

«لم أؤذك، أليس كذلك؟».

«سأبقى على قيد الحياة» قلت. «لقد انزعجت قليلاً. شكراً لاهتمامك بي».

«إني أفكّر بجسدك أكثر مما أفكّر بك. هيه، ما رأيك بجسدي؟» ودون أن أنتظر حتى أجيبه، خلع قميصه. «في بعض الأحيان، كلّ ما تريده هو أن تتمكن من أن تنظر إلى نفسك في المرآة دون أن تشمئز من نفسك». أومأت مستحسناً، لكن من الواضح لم يكن استحساناً كافياً. «وماذا عن هذا؟» قال وهو يريني قضيبه، بل كان يلطمه على ساقه بفخر وبذاءة.

«لا يضاهى».

«هذا ما يقوله الجميع. كيف ترى جدائل شعري؟».

«رائعة».

«مضى عليّ في هذا الجسد ثلاث سنوات. إنك تعتاد على الأجساد، وعلى الشخص الذي يكتسيه. كما هو الحال مع سراويل الجينز، إذ تصبح الأجساد الجديدة أفضل كلما مضى عليها الزمن. تنسى أنك فيها. شدّ معدته. «انظر إلى هذه: إنها تزداد هنا، لكني لا أريد أن أكون مثالياً. فهمت أن الكمال يجعل الناس مجانين، أو يجعلهم يشعرون بعقدة النقص».

قلت: «تكمن نقطة الضعف في أن الناس يريدون أن يعرفوا؟»

قال: «ربما. لعل المرء لا يتخلّص منها. أظن أني سأواصل عشر سنوات أخرى في هذه الحالة بل حتى أكثر، إذا سارت الأمور على ما يرام ـ في هذا الجسد قبل أن أنتقل إلى شيء أفضل». ملأ كأسه مرة أخرى ومد يده وقال: «بصحتنا ـ رواد الموضة الجديدة!».

قلت: «لدينا سر مشترك. أنا وأنت. هل تناقش هذا الموضوع كثيراً مع الآخرين؟».

«إنهم يتحدثون عنه، «الأشخاص في الأجساد الجديدة»، لكني أريد أن أعيش، لا أن أتكلّم. أحبّ أن أكون شاباً قذراً غير تقليدي. أحبّ أن أزمّ شفتي المثيرتين وأن أكون لاعباً بارزاً في التنس. ضربتي الأولى قد تزيل وجهك عن جسدك! كان يجب أن تراني من قبل. عندي صور في مكان ما. ما فائدة أن تكون غنياً إن كنت غير متوازن وأشرم الشفة؟ إنها نكتة، من الخطأ أني خرجت حيّاً بهذه الصورة! هذا أنا على حقيقتي!».

قلت: «إن ما أفتقده هو أني أمنح الناس متعة معرفتي».

لم يعد يتوقف. «قريبا سيتحدث الجميع عن هذا. ستكون هناك طبقة جديدة، نخبة من الناس، طبقة متفوقة من الأجساد المتفوقة. ثم

سيكون هناك محلات يمكنك أن تذهب إليها لشراء الجسد الذي تريد. سأفتح محلاً يضم أجساداً حقيقية، بدلاً من المانيكانات (العارضات) التي يضعونها في واجهات المحلات. أصبت! من تريد أن تكون اليوم؟».

قلت: «لو كانت فكرة الموت نفسها ستموت، لتغيرت جميع المعاني، جميع قيم الحضارة الغربية منذ عهد الإغريق. يبدو أننا استبدلنا الأخلاق بعلم الجمال».

«إنك تستحضر المعاني الجديدة! أنت محافظ إذن».

«لم أفكّر بهذه الطريقة. أظن أنني لا أعرف ماذا أنا أو من أنا. ومع ذلك من الممتع أن تلتقي بشخص كل همه المتعة، شخص تحرر من المعايير الطنانة التي يعيقنا فيها الآخرون عن الحفلة الأبدية».

«إنك ما تزال تظن أني مجرّد شخص مستهتر لعوب، أليس كذلك؟ انظر إلى هذه الكتب!» وأشار إلى الرفّ، وأضاف: «إني أدرس هؤلاء: يوريبيدس، غوته، نيتشه. أقرأ أكثر المفكرين عمقاً. أتعرف على ما حدث لي؟ كنت في الخامسة والسبعين من العمر. زوجتي هجرتني ـ من أجل شاب فحل، بل وأصبحت بوذية. لقد فضّلت عليّ بطناً مكورة هرمة! بعض الثقافات الأخرى تفضّل أشكال أجسام مختلفة، كما تعرف». ثم تابع كلامه، «ولم يكن أولادي يهمهم أمري كثيراً. إنهم أيضاً منشغلون بالمخدرات! أما أصدقائي فقد ماتوا. بإمكاني أن أشتري النساء، لكنهن لا يرغبن فيّ. أنا لم أعمل طوال حياتي فقط، بل قاتلت وجاهدت وحفرت في صخرة العالم بأظافري الداعرة! فقدت كلّ شيء وكنت أحتضر وأصبت بالاكتئاب. هل تظن أني كنت أريد أن أودّع هذه الدنيا وأنا في هذه الحالة؟»

«يبدو من الصعب قول ذلك، لكن هذه هي الحياة، على ما أظن. إنها حالات الفشل، الاستطرادات اليائسة، الأخطاء، الترهات، التي تجعل الحياة جديرة بالعيش...».

لو كان في حانة لبصق على الأرض. قال: «أنت لست سوى

شخص مثقّف. كنت أستحق نهاية أفضل. لقد اشتريت جسداً! بوسعي أن أقول لك إني أفعل أشياء نافعة جميلة أخرى. لنسمع منك الآن، ماذا تفعل في وقتك الجديد؟»

«أنا؟ أنا مجرد خادم تافة في المركز».

كشّر قليلاً وقال: «وهل ستستمرّ في ذلك؟».

«من المؤكد أني لا أفعل شيئاً مفيداً. في الحقيقة لا أستطيع أن أقول لك ماذا يعني الشعور بالراحة عندما تكون لديك مهنة، بدلاً من أن تصنع واحدة أنت بنفسك. الآن سأتمتّع بشهوري الستة».

«أنت حقاً تعود إلى أيام جسدك القديم البطيئة؟».

«إنها تجربة. لقد أردت أن أكتشف ماذا يمكن أن تكون. لكني ما زلت خائفاً من أيّ شيء... غير طبيعي جداً».

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. جلس أمامي الآن. أصبحت نبرة صوته أكثر جدّية، أكثر ثباتاً، لكن يشوبها التهديد تماماً، مع أنه بدا كأنه قد يصبح هكذا.

قال: «أيمكن أن تبيعه؟».

«أبيع ماذا؟».

«ذلك الجسد».

«أأبيعه؟».

«نعم تبيعه لي. سأدفع لك مبلغاً مجزياً. ستحقّق ربحاً كبيراً تستطيع فيه أنت وعائلتك أن تعيش ما تبقى من حياتك التي منحك الله إياها».

«وماذا عن جسدي القديم؟».

«سأعيده لك. لا توجد مشكلة. إن كيس جسد قديم لا يساوي أكثر من واق ذكري مستعمل». راح يتطلع إليّ بمحبة الآن. «إنها صفقة جيدة. ما قولك؟».

«أنا محتار. فلديك المال. اذهبْ واشترِ واحداً. لقد ذهبت إلى مكان أشبه بمشفى صغير. أنا واثق من أنك فعلت الشيء ذاته».

«نعم. هل تظن أنه من السهل العثور على هذه الأماكن؟ لم يعد الأمر بهذه البساطة».

«ماذا تقصد؟».

«إما كانت لديك علاقات جيدة أو أنك كنت محظوظاً»، قال وهو ينقر أصابعه. «لقد تغيّرت الأحوال الآن».

«كيف تغيرت؟» لم يشأ أن يقول. واصلت كلامي: «لنتحدث بموضوعية أكبر: إذا كان الناس يريدون أجساداً كهذه، فيمكنهم أن يقتلوا شخصاً. ليس مثلك، فأنا لا أوصي أحداً بذلك، فقط أقترح ما يبدو واضحاً. إذ ليس هذا هو الجسد المرغوب الوحيد».

«يجب معالجة الأجساد وتكييفها. العلامة على الرأس تخبرك ما تم إجراؤه. فالجسد الذي تكتسيه الآن ليس ثميناً في حد ذاته، بل العمل الذي أجري عليه وأنت فيه هو المهم. فالناس الذين يفعلون ذلك هم مثل الآلهة يطيلون مدة الحياة. لا يوجد اليوم إلا ثلاثة أو أربعة أطباء في العالم يمكنهم إجراء مثل هذه العملية، وهم كالرجال الذين صنعوا القنبلة الذرّية مكروهون، محترمون ومُهابون، بعد أن غيّروا طبيعة الحياة الإنسانية».

«هل تعرف فناني الأجساد أولئك؟».

قال: «يمكنني أن أتصل بواحد منهم على الأقل»، ثم أردف: «وعندي أصدقاء مرضى وهم على استعداد لدفع مبالغ ضخمة حتى ينتقلوا إلى جسد آخر».

قلت: «أناس على استعداد لدفع كلّ شيء حتى لا يموتوا. يمكنني أن أفهم ذلك. أوه، إذاً يوجد طلب كبير عليّ. لكني سأنتظر حتى تنقضي شهوري الستة. فيم العجلة؟».

«لعله يوجد شخص يموت متألماً وليس أمامه سوى بضعة

أسابيع يعيشها. قد لا يكون بوسعه الانتظار حتى تنقضي فترتك التجريبية».

«هكذا هي الحياة، كما يقولون».

«عم تتحدّث بحق السماء؟».

قلت: «هل هو شخص تعرفه؟ صديق أو عشيق؟».

«اخرس».

قلت: «حسناً. لكن هذا ما قرّرت أن أفعله. لن أعطي جسدي إلى أي شخص. لقد بدأت أتكيّف معه. أصبح أحدنا مرتبطاً بالآخر».

«لكنك لا تريده! ماذا تهمّ بضعة أشهر حتى تعود إلى جسدك القديم؟ أنصحك بشدة بأن تبيعه الآن».

«بشدة؟».

«لو كنت مكانك لما وضعت نفسي في خطر غير ضروري. أنت لست من ذلك النوع الذي يجعلك قادراً على الاعتناء بنفسك».

«إنه قراري يا مات. فأنا لا أريد مالك، ولا أريد أن أقطع: عطلة جسدي».

كان يواجه صعوبة في السيطرة على نفسه. تملكه شيء من القلق أو الغضب. أخذ يذرع الحجرة مشيحاً بوجهه عني.

قال: «هناك طلب كبير على أجساد النساء الشابات في الولايات المتحدة، فقد بدأن يختفين من الشوارع. إنهن لا يُسرقن أو يُغتصبن بل يُقتلن بدون ألم. هناك آلات للقيام بذلك، وأتمنى أن أدخل في هذه الصناعة. إنها عملية جميلة يا ليو. تحفظ الأجساد المُتخلى عنها في الثلاجات، إلى أن يأتي زمن تصبح فيه العملية بسيطة. عندما تصبح مثل تركيب محرّك جديد في سيارة، بدلاً من الاضطرار إلى تصميم السيارة نفسها من جديد في كل مرّة. بل حتى يمكن للناس أن يتبادلوا الأجساد ليخرجوا فيها، كما تتبادل الفتيات ملابسهن الآن.

وسيقول أحدهما للآخر: «من سيرتدي هذا الجسد هذه الليلة؟» ليس ثمة عودة. فالخلود هو الوجهة التي يتجه إليها بعضنا، سواء شئنا أم أبينا. لكن بالنسبة لبعض الناس سيكون قد فات الآوان»

كنت أرغب أن ألتقي بشخص في وضعي، وكنت أحبّ أن أُمضي سهرة على الأقل مع مجموعة «الأجساد الجديدة» ـ نحن الخالدين المصنوعين من الشمع ـ نتحلق حول منضدة للعب الورق، نناقش الماضي، ولا شكّ سيكون هناك الكثير الذي يمكن الحديث عنه. إلى أن أثارت نبرته اهتمامي. كنت خائفاً وأردت أن أخرج من هذا المكان، لكنه كان قد أقفل الباب. لم أرغب في أن أستفزه، إذ كان يبدو مستعداً لفعل أيّ شيء. لذلك عندما قال: «تعال وانظر إلى هذا فلعله يثير إهتمامك»، ذهبت معه.

تبعته عبر ممرات ملتوية ضيّقة. اجتزنا باباً وقف خارجه رجلان بدينان يرتديان قميصين بيضاوين بأكمام قصيرة. أومأ مات إلى الرجلين، وتبادل مع أحدهما بضع كلمات باللغة اليونانية. كنت أريد أن أسأل مات ماذا كانا يحرسان، لكني بدوت فضولياً إلى درجة كبيرة.

هبطنا ممراً آخر. وأخيراً قرع مات على باب الحجرة الأخرى. وتناهى إلينا صوت إنكليزي من الطبقة الراقية يقول «تفضل».

كانت الغرفة مظلمة ما عدا الضوء الخفيف المنبعث من مصباح المنضدة. وعلى طاولة مكتب كانت تجلس امرأة في الثلاثينات من عمرها، تكتب وتستمع إلى موسيقى فرقة *البيغ باند* الناعمة. بدا أن ملابسها تعود إلى زمن آخر، ربما كان زمن أمي، رغم أنه كان بإمكاني أن أتبين أن شعرها وأسنانها لم تكن تعود إلى ذلك الزمن. ولو كان ثمة شيء غريب فيها لقلت إنها تشبه ممثلة في فيلم عن فترة تبدو فيه صحتها وشكلها يعودان إلى الفترة التي تسبق الفترة التي تمثّلها.

توجه مات نحوها. تحدثا، ثم واصلت عملها.

وقف بجانبي عند الباب وهمس قائلاً: «هذه المرأة طبيبة في علم نفس الأطفال، إنها عبقرية في مجال تخصصها. فمنذ عدة سنوات، عندما كانت رجلاً، عالجت أحد أطفالي الذي كان مصاباً باضطراب نفسي خطير. إنها تكاد تعرف كلّ شيء عن البشر. وعندما كان مريضاً، منذ عهد قريب، دفعت له التكاليف ليكتسي جسداً جديداً. كان مصاباً بالتهاب المفاصل وكان ظهره محنياً ومقوساً بالكامل. يجب أن ينهي تأليف كتابه وأن يستمر في مساعدة الآخرين كامرأة. ألا تظن أن هذا عمل خيري جميل؟» ورمقني بنظرة تهدف إلى جعلي أشعر بالخجل. «إنها لا تكنس الأراضي في مكان ما، وتجري وراء الجنس». أغلق الباب. ثم قال: «ماذا تريد أن تسألها؟»

«كيف يموت المرء».

«الموت هو أن تكون ميتاً».

أجبت: «أوه، لا، الكلّ يعتقد ذلك، وسيأتي علماء نفسيون آخرون يبنون على أبحاثه أو أبحاثها».

«يمكنها أن تفعل ذلك. إن الحياة تجدّد نفسها».

«كيف تسير الأمور بالنسبة لكتابها؟».

«يبدو أنها تحتاج إلى عدة أعمار... لقد انتهت».

«هل قرأته؟».

«ملاحظات كثيرة؟ في معظم الوقت تستلقي على سطح القارب «تفكر». عندها دافع جنسي أكثر مما أريد. سأقبل بإحدى نقاطك: إنها ستسرع إذا ظنت أنها ستشمّه. أرجو أن تحسّن من ذائقتها أيضاً. إنها تصرّ على الاستماع إلى الموسيقى القديمة، التي تذكّرني بأيام أريد أن أنساها».

قلت: «أظن أنه ليس بإمكانك أن ترغم أحداً على أن يحب ما تحبه أنت. هل أطفالك يعرفونك الآن؟».

«إنهم لا يعرفون أين أنا. إنهم لا يكلمونني. عندما يطعنون في السنّ، إذا تصرفوا جيداً، سأشتري لهم أجساداً جديدة كهدية لعيد الميلاد».

«وهل يرغبون في ذلك؟»

هؤلاء الأولاد المجانين سيحبون ذلك دائماً. إنهم لا يتوقفون عن زيارة العيادات وما إلى ذلك. لقد أصبح أسلوب الحياة متعباً. بهذه الطريقة سيتمكنون من الاستمرار. أنا لا أقول لهم ذلك لأني أعرف أنهم سيرغبون في الحصول على بداية جديدة على الفور».

«وما المشكلة في ذلك؟».

«إذا لم يعانوا بما يكفي فلن يقدّروا الأمر. إن هذا الأمر لا يصلح لكلّ شخص».

لم أعد أرغب في الاستماع إليه، أو أن أجادله. وكما هو حال هاملت رالف، وجدت أن اللقاء بدأ يصبح مزعجاً. فقد كنا أنا ومات مجرد طفرة، نزوة، بشر غير حقيقيين، وهو واقع كان بوسعي أن أنساه على الأقل، عندما أكون مع أناس حقيقيين، أولئك الذين سينتهي حالهم بالموت.

قلت: «أريد أن أعرف مكان باتريسيا».

لوهلة ظننت أنه لن يدعني أذهب. لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ رغم أنه كان يفكّر. ثم تصافحنا، وقال: «توجد هنا الكثير من النساء اللواتي سينجذبن إليك، خذ من تشاء منهن».

«شكراً».

«يجب أن تفكّر بجدية أكثر ببيع جسدك». وأعطاني بطاقته وعاد يرمقني من الأعلى إلى الأسفل، ثم أضاف: «أنا رجلك ـ الأول في الطابور ومعي حقيبة المال نقداً. اعتن بنفسك».

كنت أعرف أنه كان يراقبني وأنا أبتعد.

خرجت. كان القمر يضيء السماء والنجوم تتلألأ، وكان النسيم دافئاً. كان معظم الضيوف قد تجمعوا على سطح القارب، يرقصون بحماس شديد، يصرخون ويصفّرون. كانت الأنثى في الجسد الجديد التي التقيتها في وقت سابق تركل بقدميها، وتتثنى وتغني أمام عازف غيتار وعازف أورغ، لقد تشجّعنا على أن نعبدها فيما كانت تعبد نفسها.

سألت أحدهم: ما اسمها؟».

قال لي: «الآنسة ريبورن». (المولودة من جديد).

عندما لمست باتريسيا في كتفها، شبكت ذراعها في ذراعي وقالت: «لقد بحثت عنك في كل مكان».

«كنا أنا ومات نتحدث».

«كان يريد أن يعرف رأيك في بعض الأشياء»، قالت بتهكّم.

«لا يمكنني القول إني أعرف الكثير عنه».

«لم لا؟» قالت، «وهنا كنت أتابع الشائعات والتخيلات. عائلته غنية، هذا أمر مؤكد».

«هل هذا كلّ ما في الأمر؟».

«قبّلني». قبلتها. قالت: «أخوه الذي يحبه كثيراً، الذي يكبره كثيراً، يحتضر على ما يبدو بسبب مرض عضال».

«أخوه؟».

«إنه يحتضر على نحو مؤلم في هذا اليخت، في حجرة مغلقة، كما يقولون».

«حقاً؟».

«إنه على بعد أمتار قليلة منّا، فيما نحن نسرح ونمرح هنا». تذكّرت الرجلين اللذين كانا يحرسان الباب. «ما الذي يجعلك تظنين ذلك».

«لماذا لا نرقص بينما ما يزال أمامنا وقت؟ لا يمكنني أن أصدق تلك المغنية. انظري إلى حركاتها».

«أوه، نعم»، قالت، «لماذا لم تقترح أن نرقص قبل الآن؟»

«ما يزال هناك وقت».

«أيها الكذاّب الصغير، إنك لم تكن تتكلّم مع مات على الإطلاق»، قالت، «لقد كنت تمارس الجنس. جميعكم أوغاد. كم واحدة كانت هناك؟».

«الكثير منهن ولا يمكنني أن أتذكرهن».

«أعرف، إن كنا سنعيش معاً فهذا شيء يجب أن أتعايش معه».

«هذا صحيح».

ألقت برأسها على كتفي. وفيما كنا نرقص كان بوسعي أن أفكّر بما قاله لي مات. ولم يكن من الصعب معرفة لماذا كان يريد جسدي لأخيه. لكن لماذا لم يذهب ويشتري واحداً كما فعلت أنا؟ هذا ما لم أفهمه ـ لماذا كان متحمساً ليحصل على جسدي.

حاولت أن أنسى الأمر برمته. بدأت أجد متعة في الرقص مع باتريسيا. أخذت أضمها إليّ وأقبّلها، أتفحص طيّات وثنيات رقبتها الهرمة وذراعيها البضين، اللحم الفائض عن بدنها الحيّ، وأمسك بيديها اللتين كانت تتناثر فوقهما بقع كثيرة. فكّرت بشيء كان قد ذكره: «من يريد أن يرى الكثير من الأجساد المسنة تتسكّع في العالم؟ فهي قبيحة وصيانتها مكلفة. وقريباً لن تصبح ذات أهمية تذكر».

ومع ذلك كان ثمة شيء فيها لم أشا أن أتركه يمر هكذا. فقد كان جسدها وروحها شيئاً واحداً، كانت «حقيقية»، لكن كيف يمكن لهذه الفكرة أن تؤثر على الخلود؟

ملأني مات بالقلق والإحساس بالشؤم. لم أعرف كم مرّ علينا من الزمن أنا وباتريسيا ونحن نرقص، لكني ظننت أن الليلة قد

انقضت. ولا بد أننا كنا ندور حول الجزر ونعود إلى حيث انطلقنا. لقد أمضيت وقتاً طويلاً على هذا المركب.

حشرت باتريسيا يديها داخل قميصي. «تجعلني أشعر بالنداوة. أريدك مرة أخرى. لا يمكنني أن أنتظر حتى أنالك ثانية».

ورغم شدة سعادتي لوجودي معها، لم يكن يخطر ببالي أنه يمكنني أن أفعل ذلك مرة أخرى.

«قد تضطرين للانتظار قليلاً»، قلت.

«لماذا؟».

«أوه، لا أعرف. إني متعب. انظري»، قلت، «هناك الكثير من الرجال. وخاصة الشباب منهم».

كان بإمكاني أن أرى ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة شباب مفتولي العضلات جيدي البنية في باحة الرقص.

قالت: «قل لي شيئاً»، لاحظت صفاء جديداً في عينيها. «ألن تقول لي الحقيقة، إني أعرف ذلك. لكني سأعرف على أية حال. لماذا لا تلمسني، لا تقبلني، لا تلعقني... شيء لا تريد أن تفعله لي؟ هل تقرف من جسدي؟».

في الواقع لم يجعلني وجودها، جسدها، أشعر بالنفور منها. فقد كانت أختي ممرضة. وقد علمتني ألا أشعر بالنفور من الأجساد، بل من الأشخاص الذين في داخلها فقط. بل وجدت موقف باتريسيا الاستحواذي شيئاً يصعب عليّ تحمله. وبينما كنت أفكّر بذلك كانت ترمقني بنظراتها.

قالت: «الآن بدأت أعرف. ظننت أن هذا هو الأمر. لقد استغرق الأمر مني وقتاً لأتبينه».

قلت: «نعم. إن ما تفعلينه لي هو ما يفعله الرجال للنساء، الحط من شأنهن وإذلالهن. إنه شيء فاشي. باتريسيا، ماذا حدث للثورة؟».

ابتعدت عني خطوة، كما لو أن شيئاً قد انفجر في جسدها.

انسللت مسرعاً الآن. لم تكن هي من أراد أن ابتعد عنها، فقد رأيت بطرف عيني مات وهو يشير إلى رجل باتجاهي، كان يبحث عن مكان وجودي. وكان ثمة رجال آخرون يتحركون باتجاهه.

اتجهت إلى الطرف الآخر من اليخت وخلعت بنطالي. عقدت رباط فردتي حذائي وثبتهما على ظهري. رأيت بضعة أضواء على الشاطئ من مسافة بعيدة. كانت التحضيرات تجري للنزول من اليخت، إلا أن ذلك سيستغرق بعض الوقت. لم يكن بوسعي أن أنتظر أكثر من ذلك. صعدت فوق الدرابزين وألقيت بنفسي في البحر.

طفوت على السطح. كنت قد قطعت مسافة، عندما سمعت أصواتاً. كان هناك رجال آخرون خلفي يحاولون الانضمام إليّ. لماذا؟ توقّفت لحظة ونظرت إلى الوراء. ومن ضوء السفينة تبينت أن السباحين الذين كانوا يتبعونني لم يكونوا يشبهون النساء من المركز، بل يشبهون الرجال الذين كانوا على متن اليخت. كما لم يكونوا سكارى أو مخدرين كالذين كانوا يشاركون في الحفلة. بل كانوا يسبحون لهدف ما، دون أن يحركوا الماء وهم يسبحون. لا بد أنهم رجال مات. كانوا سريعين وأقوياء. وكذلك كنت أنا، بل حتى أنني كنت أتفوق عليهم.

خرجت من الماء ورحت أجري، ولبست حذائي وابتعدت عن الشاطئ باتجاه القرية. كان هناك بضع حانات ومراقص ما تزال مفتوحة. كانت الساحة تعج بالناس ويملؤها الضجيج. وكان بإمكاني أن أختفي بين جموع الناس في مكان ما، لكن ماذا بعد ذلك؟ فسرعان ما سيتفرق الجميع وتخلو الساحة. على أية حال لم أشأ أن أخاطر في الوقوع في أيدي أيّ من أعدائي الآخرين.

رحت أجري عبر الممرات الضيقة باتجاه المركز. عندما وصلت إلى هناك وجدته خالياً، مما أثلج صدري. ارتحت قليلاً وصنعت لنفسي كوباً من الشاي. اختبأت في المكان حتى الصباح.

لكني كلما فكّرت في الموضوع أكثر أحسست بدرجة أقل من الأمان. وبدا أن الرجال الذين كانوا يلاحقونني عازمين على إتمام مهمتهم. ولن يكون من الصعب على مات أن يكتشف مكاني، هذا الرجل الذي لا يعرف الشفقة.

فيما كنت أجمع حقيبة غسيلي وبضعة أشياء أخرى من السطح، خيّل لي أني سمعت صوت أحد يعبث بمقبض الباب في الجدار. ولم أسمع كذلك أي صوت نسائي.

وبسرعة التقطت عدّة قطع من الألبسة النسائية المنشورة على السطح لتجفيفها، وحشرتها في جعبتي.

عندما سمعت أصواتاً داخل البناية ورأيت وميض ضوء مصباح، قفزت من سطح بناية السكن إلى سطح المطبخ. ووثبت إلى طرف البناية ثم إلى حافة خرسانية ضيقة في الأسفل. كنت أعرف أن المنفذ الوحيد الآن يقع بجانب التلّ. ولم أكن أعرف جيداً عمق البناية بالتحديد، لكني لم أكن أشكّ بأنه كان انحداراً شديداً.

لم يكن الأمر كذلك فقط، بل كانت الأرض وعرة أيضاً. وفيما كنت أتأرجح هناك، محاولاً أن أقرر ماذا عليّ أن أفعل أدركت مدى قوة الرغبة في العيش. فلو كان الأمر بيدي لوقفت على تلك الحافة لأيام عديدة. وكنت قد تعرضت في بعض الأحيان من حياتي إلى الاكتئاب، بل كانت تنتابني أحياناً رغبة في الإنتحار. لكني لم أكن مستعداً للتخلّي عن رأيي أو عن جسدي. كنت أريد أن أعيش.

قفزت. لا بد أن الارتفاع كان عشرين قدماً. بعد أن هبطت إلى الأرض، كانت أي خطوة متعثرة محفوفة بالخطر. فقد بدت الأرض صخرية ورملية في الوقت نفسه. لم يكن بوسعي أن أتوقف كي أفكّر. انزلقت وسقطت معظم الطريق، وتعذر عليّ أن أقف على قدميّ. تناثرت الجروح في أنحاء جسمي. من أي شيء كانت الحشائش مصنوعة؟ من القصدير؟ شفرات؟ كان الأمر أشبه بالتدحرج فوق زجاج مكسور. لكن لم يعد أحد يتبعني.

توقفت عند أسفل التل. لم أعد أسمع أحداً يتبعني. انتظرت حتى ينقضي معظم الليل. وبحذر شققت طريقي نحو الشاطئ. فقد خلا الآن حتى من المتضاجعين.

اقتحمت حمّام مطعم مهجور فتحممت وحلقت لحيتي. ثم استلقيت على بعض المقاعد، وسحبت قطعة من القماش المشمّع الرطبة فوقي. كانت هناك مخلوقات زلقة وحشرات وكلاب في الجوار، ورجال يسعون للحصول على جسدي. لم يغمض لي جفن.

وصلت إلى الميناء قبل طلوع الضوء، أنتظر أول مركب يقلّني إلى بيرايوس. سأذهب إلى أثينا وعندها أقرّر الخطوة التالية التي سأتخذها. غطّيت رأسي بوشاح طويل خفيف، وارتديت تنورة ووضعت نظارات سوداء. ولم أصعد إلى القارب حتى اللحظة الأخيرة.

كنت جالساً في مؤخرة مقهى قبالة الميناء عندما همس أحدهم بالاسم الذي أطلقته على نفسي بحماقة تكبراً مني. حتى أني فكّرت أن أجري مرة أخرى. إذ بدأ جسدي يرتعش خوفاً.

بالطبع فقد جاءت أليسيا تبحث عني.

سألتها: «كيف عثرتِ عليّ؟». ثم أشرت إلى لباسي وسألتها: «هل تناسبني هذه الألوان؟».

«نعم، لكنها لا تتطابق جميعها».

«لقد هددني بعض الرجال في الجزيرة مرة أخرى. أعرف أنهم يعملون هنا».

قالت: «فكّرت بما سأفعله هنا؟ أين سأختبئ؟ وها قد أتيت».

«حقاً»، قلت، «هل أبدو مكشوفاً؟».

«بالنسبة لي فقط. هل حاول أحد أن يمسك بك؟».

«إني أبدو شخصية مأساوية».

قالت: «شخصية مأساوية يكسو أذنها الكثير من الشعر على نحو لا يليق بسيدة». احتسينا القهوة معاً ثم قالت: «هل ستهرب؟»

«حان وقت الذهاب. هل تمتّعتِ ليلة أمس؟»

«لقد حدث شيء غريب. سأخبرك عنه في وقت آخر»، ثم قالت: «لن أمكث في المركز بعد الآن. إذ ستكون باتريسيا في إثري، عندما تكتشف أنك ذهبت. إني أشعر بخيبة أمل لأنك ستهرب بهذه الطريقة».

«أنا آسف إن كنت قد جعلت الأشياء صعبة بالنسبة لك، لكنها لن تدعني وشأني».

«إنه الثمن الذي يجب أن يدفعه الوسيمون. ألم تتعود على ذلك بعد؟».

فيما كنت أراقب المركب يمتلئ بالركاب بدأ التوتر يعتريني. سألتها إن كانت لا تمانع في أن تشتري لي تذكرة من مكتب الميناء. فقد كان بوسعي أن أرى عدّة مرشحين محتملين من رجال مات.

في السفينة اختبأت في مرحاض السيدات. وبعد ذلك، عندما بدأ الناس يقرعون على الباب، اضطررت إلى الخروج. ظننت أنه قضي عليّ. شققت طريقي إلى السطح حيث تُركَن السيارات واختبأت تحت بطانية في المقعد الخلفي في سيارة مرسيدس قديمة. عندما ألقى المركب مرساته واحتل السائق مكانه لم يلحظني. وبينما كانت السيارة تنتظر مغادرة السفينة، قفزت خارج السيارة وهربت. جريت واختلطت في الحشد، وركبت سيارة أجرة.

7

لم أكن أعرف سبب ذلك حق المعرفة، لكني عدت إلى ذلك الجزء من مدينة لندن الذي كنت أعرفه. أحسست بمزيد من الأمان، وبمزيد من راحة البال، وأنا في مكان مألوف لديّ. ففي مدينتك لا يتعين عليك أن تفكّر أين أنت. لقد أخافتني فكرة ملاحقتي. كنت خائفاً طوال الوقت. لم تكن لديّ فكرة إن كان مات ما يزال يلاحقني. لا بد أني أقنعت نفسي بأنه قد فقد الاهتمام بي. لعل أخاه قد مات، أو ربما عثر على جسد آخر. أما أنا فقد كنت في سن يجعلني أعرف كيف يمكن أن تكون لبعض أفكارنا علاقة بكيفية حدوث الأشياء.

وصلت إلى الفندق الكئيب ذاته الذي كنت قد أقمت فيه في السابق. وعندما أصبحت بحاجة إلى نقود، بدأت أعمل في مصنع لتغليف ألعاب عيد الميلاد. ربما كان مات محقاً، فلم يكن من الملائم أن أستأجر جسداً لستة أشهر فقط. إذ لم يكن لدي وقت كاف لأبدأ حياة جديدة كشخص جديد. وكان قبولي أن أعود إلى جسدي القديم يعني أني كنت أحنّ إلى حياتي القديمة. كنت في حالة من الشك، غرفة انتظار لم تكن فيها حقيقة، بل الكثير من الشك والقلق.

في الساعة الثامنة من صباح أحد الأيام سمعت طرقاً على الباب.

ففي هذا الفندق، كنت تسمع دائماً طرقات على الباب: لاجئون، لصوص، مومسات، تجار مخدّرات؛ أناس ليس باستطاعتهم شراء

أجساد جديدة، بل حتى ليس بمقدورهم أن يحصلوا على قدر كاف من الطعام، وأناس يبحثون عن أناس آخرين، ولا أحد يريد أن يصنع لك معروفاً إذا لم يكن لقاء شيء آخر. ومع ذلك فقد كانوا يعلنون عن أنفسهم عادة. أما هذه المرة فلم يكن هناك ثمة رد.

ربما جاء مات ليحصل على جسدي. فقد كنت قد شاهدت فيلماً كان فيه رجال يرتدون بدلات داكنة يقفون في الخارج. ففيما يركلون الباب، سأتوارى في الحمّام وأشهر مسدسي، أو أخرج من نافذة الحمّام وأهبط على سلم النجاة. كانت هذه طريقة الشباب في التفكير، أما أنا فلست شاباً في تفكيري، رغم ليونة جسدي ومرونته. كان هناك جزء آخر مني، عقلي الأكبر سناً إن أحببت، الذي تملكه غضب شديد الآن، بسبب هذا الانتهاك. إذ لم يكن جسدي للبيع، مع أني، بالطبع، كنت قد اشتريته أنا نفسي.

«كيف وجدتني؟».

جلست أليسيا على السرير؛ وقفت أنظر إليها. كانت قد حلقت شعر رأسها تماماً وازداد وزنها. كانت ترتدي بلوزة مرسوم عليها قوس في المقدمة.

«لماذا أطلقت لحية طويلة؟».

«أليسيا، أوّد أن تعامليني بجدية».

نسيت كم كانت عصبية المزاج. «ليو، إني مسرورة لرؤيتك. هل تمانع من قدومي لرؤيتك؟».

«ليس كثيراً كما قد تظنين. لكني أريد أن أعرف كيف تمكنت من معرفة مكاني».

«لم أخبر باتريسيا، إنها ليست في الطابق الأرضي، إذا كان هذا ما يقلقك. كنت أفتش في أغراضك ذات مرة... في محاولة... كنت أريد أن أعرف من أنت حقاً. فقد كنت أعتبرك مراوغاً كالجاسوس. مما جعلني أتجسس عليك. وقد وجدت إيصالاً باسم

هذا الفندق، وكتبت العنوان في إحدى قصائدي». وأضافت «ومع ذلك فإذا أردت أن تحتفظ بخصوصيتك، فلماذا لا تفعل ذلك؟ هل تريدني أن أذهب؟».

«سآتي معك. لنخرج من هنا. فأنا لا أبقى أبداً في هذه الغرفة خلال النهار».

أخذت أرتدي معطفي.

قالت: «إنك تكتب».

كانت توجد في زاوية الغرفة وعلى منضدة صغيرة بعض الأوراق.

قلت: «أرجوكِ لا تنظري إلى ذلك».

«ولم لا؟».

«إني أحاول... أن أكتب شيئاً عن رجل عجوز في جسد شابّ».

«لقد كتبت الكثير. هل انتهيت؟» راحت تقلّب الصفحات. «هناك حوار. إنه مكتوب بشكل محترف. هل كنت تكتب من قبل؟».

«لقد شجّعتني أنتِ يا أليسيا».

«بل بالعكس. هل ستحاول أن تبيعها؟».

«وما يدريك. أعطني إياها الآن».

«يا لك من شخص غريب!».

أخذت الأوراق منها ووضعتها تحت السرير.

سألتها في المقهى: «كيف حال صديقتي باتريسيا؟».

«يا لك من شخص مثير للمشاكل. كان الناس يدفعون نقوداً لحضور دروسها لكنها كانت ترفض أن تغادر الفراش. لقد أريتها شيئاً كان ممكناً، حدّة في المشاعر مع رجل، واستعدته منها مرة أخرى. كانت ترسل في طلبي ونتكلم عنك ساعات طويلة، نتساءل من

أنت. كانت تشتعل غضباً وتبكي. وانفرجت كربتها عندما جاء ذلك الرجل من المركب ليراها».

«رجل؟».

«ذلك الرجل اللعوب. مات».

«أليسيا، ماذا حدث؟».

«لقد أخرجاني من الغرفة. وقد سمعت كلّ شيء من خارج النافذة».

«و؟».

«قال إنك كنت مديناً له بشيء. لكنه لم يقل ما هو ذلك الشيء. ألم تستدن منه نقوداً؟» هززت رأسي بالنفي. «كان يبحث عنك، كان يريد أن يعرف إن كان هناك أحد يعرفك».

«هل هدّد باتريسيا؟».

«لم يكن بحاجة إلى ذلك. فقد شعرت بالسعادة عندما راحت تتحدث عن تعقيدات شخصيتك. كنت بحاجة إلى ساعات لفهمها. لم يكن ذلك محط اهتمام مات. بالطبع، إنها لا تعرف مكانك. لقد غادرت الجزيرة بعد عدة أيام وذهبت إلى أثينا».

«هل تبعكِ أحد؟».

«ولماذا يلاحقونني؟ ماذا يجري؟» قالت أليسيا. «إنك تعرف ما تريده باتريسيا؟ أن تساعدها في إدارة المكان».

قلت: «كان بودي أن أقوم بذلك. فإن ذلك سيكون ممتعاً لفترة من الوقت. وبالطبع سيكون من المستحيل أيضاً، بسبب موقفها تجاهي».

قالت: «كنت ستفعل ذلك؟ ألا توجد لديك شكوك؟».

«ماذا؟».

«عن نفسك. عما تقدر أن تفعله؟ فهذا يجعلك تختلف عن الكثير من الناس. تختلف عن معظم الناس في الحقيقة».

قلت: «نعم، لديّ شكوك. ولكني لا أريدهم أن يقفوا في طريق أخطائي».

قالت: «حدث شيء آخر. لم أخبرك بالقصة كلها عندما اختفيت من المركب في تلك الليلة -»

«نعم، آسف. لم أستطع أن أتحمّلها».

«عاد البعض إلى المركز. لكني كنت أتسكع لأرى إن كنت ستعود. فقد بقي عدد كبير من مجموعتنا على المركب حتى بعد الفطور. كان الفجر رائعاً. جاء مات إليّ. عرف أني كنت من أعضاء المركز. إذ لم أكن أشبه الناس الآخرين الذين يعرفهم بأجسادهم المثالية. أخذني إلى غرفته. أراد أن يعرف معلومات عنك».

«ماذا قلتِ؟».

«كان يجلس هناك قبالتي، يفتح ويغلق ساقيه مثل فخّ. كان يبدو وسيماً مثلك تقريباً. وعدته بأن أخبره كلّ شيء أعرفه عنك إذا ضاجعني. قلت له إني عذراء ولا تأتيني الرعشة. لقد آن الآوان كما تعرف. بدا سعيداً، وكان يبدو لي أنه قد بحث في هذا الأمر. قال لي: يبدو لي أن مضاجعة العذارى تطيل العمر. فقد عاش مدير مدرسة رومانية للفتيات مائة وخمسين سنة. وكان يفضل ذلك على تناول الخلايا الجنينية المجفّفة للخنازير، أو شرب زيت الأفعى. بدا أنه يعتقد أن هذه مقايضة معقولة. ضاجعني بقوة على الأرض. كانت مضاجعة رائعة. هل هي دائماً هكذا؟ إني حامل».

«منه؟ مات؟».

ربتت على بطنها. «لا تسألني إن كنت سأحتفظ به».

«العالم مليء بالأمهات اللاتي يعشن وحدهن. لقد أصبحت الطريقة الوحيدة المتبعة هذه الأيام. ما فائدة الرجال؟ لكنه ليس رجلاً جيداً».

«لا حاجة لي كي أخبرك أنه من الصعب العثور على رجل جيد. إسأل باتريسيا!».

«أليسيا، كان ذلك محض جنون! إنك لا تعرفينه!».

«سأقدّم له الفاتورة ذات يوم».

«لكن لماذا هو؟».

«كنتَ تثيرني ولم أعد أطيق صبراً. فلم يكن هناك أحد في المركب غيره أبدى اهتماماً بمضاجعتي. أعرف أني لست جميلة، وكلّ ما كنت أريده كفتاة هو أن أكون جميلة. كان مات ينظر إليّ مثل ذئب جائع، ولم أستطع أن أبتعد عن الباب».

«هذا أشبه بالحصول على طفل من الشيطان».

«إذا كان على هذه الدرجة من السوء فمن الأفضل أن تخبرني بالتفاصيل. لا يمكنني أن أنظر من موقعي هذا إلا إذا عرفت الحقائق. وإلا... سأمضي معه».

كانت تنتظر. بدا لي أنها تدرك أني كنت أعرف معلومات أكثر عنها.

«لم ألتق به إلا مرة واحدة فقط». قلت لها وقبّلتها وضممتها وعانقتها. «مبروك».

«شكراً».

«ماذا ستفعلين الآن؟».

«سأعود لأعيش مع أمي. الأشياء تبدو قاتمة. يجب أن أقول لك، فأنا لا أعرف كيف أواصل حياتي».

كنت أنظر إليها. «إما أن يرغب الناس في حياة أبدية أو أنهم يريدون مغادرتها الآن».

«هلّ يمكنك أن تفكّر بالأسباب التي تجعلني أستمر؟».

«أسباب كثيرة. المتعة».

«فقط؟».

أضفت: «الأطفال، إذا كنتِ تحبينهم. كانوا يمنحونني دائماً متعة أكبر من أي شيء آخر».

قالت: «جيد، جيد».

وكنت أشعر في حضرتها أنه يتعين عليّ أن أبرّر لها أساسيات الحياة، وهذا ما أزعجني كثيراً. ومع ذلك كانت تعجبني، وكنت أرغب في مساعدتها. ثم خطرت لي فكرة. قلت لها لديّ شيء يجب أن أحله. اتفقنا على أن نلتقي في وقت لاحق.

عندما افترقنا توجهت إلى مقهى الإنترنت، وأرسلت رسالة إلكترونية إلى صديق كان محرّراً في مجلة أدبية تنشر قصصاً، وشيئاً من الصحافة والصور. وطلبت منه أن يرى أليسيا بأسرع ما يمكن. وقلت له إني لا أريد أن يذكر اسمي. ثم خابرت أليسيا وقلت لها بأن عليها أن تذهب وترى هذا الرجل بعد الغداء. وبعد قليل من النقاش وافقت على الذهاب إلى مكتبه لتقرأ له عدداً من القصائد وتحدّثه عن نفسها.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما التقينا ثانية في حانة محلية، قالت لي إنه عرض عليها وظيفة تدقيق المخطوطات وترتيب المكتب لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع.

قلت: «هذا عظيم، هل أنت سعيدة؟».

قبّلتني وقالت: «كنت أعرف بطريقة ما أن هذا تم عن طريقك يا ليو. لكن الغريب هو أنه لم يعرف اسمك».

فقلت: «لا، إنه لا يتذكّرني. لكن كان لأبي صلات جيدة به».

«من كان أبوك؟ أم أن هذا سر تريد أن تحتفظ به لنفسك؟».

كنا جالسين في حانة بالقرب من النافذة حيث يمكنني أن أراقب الشارع خشية اقتراب أي من القتلة. عرفت عدداً من الأشخاص. كانوا جميعهم يبدون كالقتلة. إلا أني رحت أركز اهتمامي خلال الأيام القليلة الماضية على شخص دون أن أقرّ بذلك لنفسي، شخص لم يكن بإمكاني أن أبحث عنه، بل كان عليّ أن أنتظره.

يجب أن يأتي الآن. ها هي هناك، زوجتي، تعبر الطريق. انخلعت عجلة عربة التسوّق التي كانت تدفعها. راحت تعبث بها، لكن يجب إصلاحها جيداً. مرتبكاً وقفت هناك أنظر حولي. كانت العربة ثقيلة، مليئة بالمشتريات. وهي لا تستطيع أن تتركها، ولا تستطيع أن تحملها إلى البيت.

استأذنت من أليسيا. عبرت الطريق واتجهت إلى زوجتي وسألتها إن كانت على مايرام.

«أشعر بأني لا أعرف ماذا أفعل يا عزيزي».

«قد تكون هذه الحوادث الصغيرة مدمّرة في بعض الأحيان. هل يمكنني أن أساعدك يا سيدتي؟».

دفعت العربة إلى مدخل عمارة وألقيت نظرة عليها. فأنا لست ميكانيكياً، لكن كان بإمكاني أن أرى أن العجلة قد كسرت.

«هل تقيمين في مكان بعيد؟».

«على بعد عشر دقائق مشياً».

قلت لها: «سأكون صديقاً طيباً. انتظري دقيقة واحدة».

عدت إلى أليسيا.

«هذا هو عملي الجيد لهذا الأسبوع، بل ربما لهذا القرن. سألتقي بك بعد ثلاث ساعات في الحانة عند الناصية».

أخذت تنظر إليّ. «هل ستذهب إلى البيت مع أي امرأة أخرى غيري».

«يبدو أن الأمر كذلك».

«ألا يمكننا أن نربّي الطفل معاً؟».

قبّلتها وقلت: «في ما بعد».

اجتزت الطريق ثانية ورفعت العربة بين ذراعيّ.

«في أيّ اتجاه؟».

كانت ثقيلة وقاسية. سرت ببطء، متذمراً بشكل مبالغ فيه، لأمضي وقتاً أكبر مع زوجتي.

قلت لها: «ألا يوجد عندك أحد يساعدك؟».

«ليس حالياً».

كنّا نقترب من بيتي. لاحظت أن البوابة الأمامية متقلقلة ويجب إصلاحها.

فتحت الباب الأمامي. «هل تودّ الدخول؟». تردّدت. «لدقيقة فقط»، قالت.

«إن كنت لا تمانعين، أريد كأساً من الماء من فضلك».

في الداخل قالت: «هل يمكنني أن أسألك... ماذا تعمل؟».

«إني مسافر. أمضي إجازتي».

دخلت إلى المطبخ ورحت أتطلع في أرجاء المكان. لا شيء قد تغيّر، لكن كلّ شيء بدا مختلفاً بعض الشيء.

هبط ابني الذي كان الآن بعمري من الطابق العلوي ومدّ رأسه. ابتعدت قليلاً لأفسح له المجال. كان هو من أردت أن ألمسه، يداه ووجهه. ففي السنوات القليلة الماضية أصبح من النادر أن يلمس أحدنا الآخر. هل شعر بالإحراج، أم أنه لم يحبّ جسدي. كنت ما أزال أحبّ أن أقبّل وجنتيه، حتى لو كان عليّ أن أمسكه وأشده نحوي.

«هل كل شيء على ما يرام يا أماه؟» قال مايك. ونظر إليّ وقال «مرحباً».

لا بدّ أني كنت أحدّق فيه.

«لقد انكسرت عربتي»، قالت.

قال: «قلبك؟».

«العربة، أيها الأبله الكبير!».

دخل إلى الغرفة. بدا يقظاً وسعيداً ويتمتع بصحة جيدة. واستطعت أن أرى فيه نفسي القديمة بالطريقة التي كان يسلكها. لقد اشتقت إلى نفسي. واشتقت أيضاً إلى سروري ومتعتي بها، اشتقت إلى العيش بالقرب من حياتها، حتى أعرف ماذا تفعل وإلى أين تذهب.

انتابني الفزع عندما رأيته يحمل حاسوبي النقال الجديد، حاسوَب صغير خفيف رائع كنت قد اشتريته قبيل قراري أن أصبح شخصاً آخر. كنت أنوي استخدامه في السرير. كانت الأجهزة التي تساعدني في عملي تجذبني دائماً. ففي بعض الأحيان كان يكفيني مجرد شراء قلم أو حاسوب جديد لكي أعود للعمل.

قلت: «يبدو هذا جيداً».

قال لأمّه: «نعم. سأستعير هذا بعض الوقت. وسأعيده قبل أن يعود أبي. هل سمعتِ عنه شيئاً؟».

قالت: «لقد بعث بتحياته وحبه».

فقال: «هل هذا كلّ شيء؟» ثم أضاف «لا أظن أنه سيمانع إذا استعرت حاسوبه. بالمناسبة، عيد سعيد. من المعيب أن تكوني وحدك الآن».

قالت: «سأرفع كأسي في ما بعد».

قلت: «هلّ يمكنني أن أسأل ما هي المناسبة؟».

فقالت: «إنه ليس عيد زفافي، بل ذكرى اليوم الذي التقيت فيه بزوجي. إنه مسافر في مهمة عمل الآن، الأحمق».

«لماذا أحمق؟».

«كان يتنفس بصعوبة. ولم يكن يستطيع أن يمشي مسافة طويلة. كنت أرى ذلك في وجهه، إنما لا أظن أنه كان يعرف مدى المرض الذي أصيب به. قبل أن ينطلق في رحلته إلى أوروبا قرّرت أننا يجب أن نتمتّع بالوقت المتبقي لنا معاً. لكني لم أشأ أن أحرمه من متعه».

قال مايك: «أماه، هل أنت على ما يرام؟ هل يمكنني أن أذهب؟».

«يمكنك ذلك».

أغلق الباب الأمامي.

سألتها: «هل تريدينني أن أذهب أيضاً؟».

«لكني يجب أن أقدم لك الشاي. سأشعر بالخجل إن لم أفعل ذلك بعد أن ساعدتني».

«أنت امرأة تثقين بالآخرين».

«لاحظت الآن أنك تنظر إلى الكتب. فلا اللص ولا المجنون يفعل ذلك».

«ابنك وسيم جداً».

«إنه ولد جيد. صديقته حامل».

«حقاً؟ يا له من شيء رائع. مبروك».

«سيعود آدم عند الولادة، أعرف أنه سيفعل ذلك».

صعدت إلى الحمّام. عندما خرجت لاحظت أن باب غرفة مكتبي كان مفتوحاً. والكتب التي كنت أقرؤها قبل مغادرتي كانت مكوّمة فوق المنضدة الصغيرة بجانب أقراص السي دي التي اشتريتها لكني لم أشغّلها بعد. لم أستطع مقاومة الرغبة في الجلوس إلى طاولة مكتبي، وأتطلع إلى صور أطفالي في أعمارهم المختلفة. كنت أعرف مكان كلّ شيء، مع أن يديّ أصبحتا أكبر وذراعيّ أطول من قبل. وكان الحبر في قلمي الحبر الأثير لديّ ما يزال يتدفّق. كتبت بضع كلمات ودسست الورقة في جيبي. كان عليّ أن أبتعد عن هذا المكان بسرعة.

حين عدت جلست بجانب مارغوت وصببت الشاي. نظرت إلى خاتم الزواج الذي اشتريته لها وقلت: «من أين أنت؟».

«أنا؟ هل تسألني أنا؟»، قالت، «هل تريد أن تعرف؟».

«لم لا؟».

«لا يوجد أحد يهتم كثيراً بالنساء في عمري».

عندما أخبرتني عن مكان ولادتها، وحدثتني قليلاً عن والديها، سألت أسئلة أخرى عن نشأتها وتربيتها. ورحت أستمع إلى ما حدث.

كنت قد سمعت بعضاً من هذا من قبل، في السنوات التي بدأ يتعرف أحدنا فيها على الآخر. ومع أني لم أسألها عنها منذ مدة طويلة. كم مرّة يمكنك أن تدير الحديث نفسه؟ لكن الماضي لم يكن أكثر خموداً من الحاضر: كانت هناك نغمات وزوايا وتفاصيل مختلفة. ذكرت أناساً لم أسمع عنهم، وتحدّثت عن شخص كانت تحبّه وترعاه أكثر مما كانت تعترف في السابق.

أصبح لقصتها الآن مغزى أعمق بالنسبة لي، أم أنه أصبح بإمكاني الآن أن أسمح بسماع المزيد! شربنا الشاي واحتسينا قليلاً من النبيذ. لقد أثارها اهتمامي، ودهشت لكثرة القصص التي حكتها لي. كانت تريد أن تتكلم، وأنا كنت أريد أن أسمع.

سألت فقط عن حياتها قبل أن تتعرف عليّ. وعندما ذُكر اسمي لم تتكلم كثيراً عني، وأنا لم أتابع الموضوع. تمنيت أن أمتلك الشجاعة لاستمع إلى كلّ كلمة ـ حياتي من وجهة نظر زوجتي، موجز قصير. لكني كنت أعرف أن ذلك كان سيزعجني كثيراً.

أثارت شجوني! فالاستماع إليها لم يبين لي لماذا كنت أحبها، بل أثبت أني كنت أحبها فقط. وددت أن أقدم لها كلّ ما لم أن أقدمه لها في السنوات القليلة الماضية. كم كنت منطوياً على نفسي ومنعزلاً! فالأمر سيختلف كثيراً عندما أعود كما كنت.

انقضت ساعتان. وقلت أخيراً: «يجب أن أذهب الآن. يجب أن أتركك لمتابعة أمورك».

«وماذا عنك؟»، قالت وهزّت رأسها. «أشعر وكأنني أصحو من حلم. ماذا كنا نفعل معاً؟».

اتجهت إلى المنضدة التي يقبع فوقها المسجل وعليها مجموعة من أقراص السي دي.

«هل يمكنني أن استمع إلى لحن؟».

قالت: «قل لي، لماذا سألتني كلّ هذه الأسئلة؟».

«هل أزعجتك؟».

«لا، بالعكس. لقد حفّزتني على... لقد جعلتني أفكر...».

«أنا أهتم بالماضي. أفكّر في أن أصبح مؤرخاً لفترة القرون الوسطى».

«أوه. رائع»، ثم أضافت: «لكن الأسئلة التي سألتها كانت شخصية، وليست تاريخية. إنك شابّ فضولي في واقع الأمر».

قلت: «لقد حدث لي شيء. لقد غيّرني شيء ما. أنا...».

انتظرتني حتى أكمل، لكني توقفت عن الكلام. في بعض الأحيان لا يوجد شيء أسوأ من السرّ، وفي أحيان أخرى لا يوجد شيء أسوأ من الحقيقة.

قالت: «ماذا حدث؟».

«لا شيء. فصديقتي تنتظرني في الشارع».

وضعت الموسيقى الأثيرة لدى زوجتي. قبّلت يدها ولامست بجسدها جسدي ونحن نرقص. عرفت أين أضع يديّ. في عقلي كان جسدها يلائم جسدي. ولم أشأ أن ينتهي ذلك. كان وجهها يشكل الخلود بالنسبة لي. لامست شفتاها شفتيّ وولجت نفسها في داخل جسدي. قبّلتها لثانية فقط. تبعت عيناها عينيّ، لكني لم أستطع أن أنظر إليها. فإذا كانت قدرة زوجتي على الإغواء قد أدهشتني، فقد صدمتني كذلك قدرتها على النسيان، أو إمكانية الاستغناء عني بهذه السهولة. فلسنوات طويلة، عندما كنا أطفالاً، جعلنا أباؤنا نعتقد أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدوننا. إلا أن هذه الضرورة لم تعد

تطبّق بالطّريقة ذاتها، مع أننا قد لا نستطيع أن نكفّ عن البحث عنها.

عند الباب قالت زوجتي: «هل ستأتي لاحتساء الشاي مرة أخرى؟».

فأجبت: «أعرف أين أجدك. بالطبع لا أمانع في ذلك».

«يمكننا أن نزور معرضاً للرسم».

«نعم».

ودعتّها، وغادرت بيتي على مضض. كانت مارغوت قد وضعت كيس القمامة خارج الباب الأمامي، لنقله إلى صندوق القمامة. شعرت بالانزعاج لأن ابني لم يفعل ذلك. قلت لنفسي إن يديه كانتا مشغولتين لأنه كان يحمل حاسوبي النقال.

حملت كيس القمامة ووضعته بجانب البيت. ومن مكاني، وعبر فتحة في السياج، كان بإمكاني أن أرى الشارع. كانت هناك سيارة مركونة بجانب سيارة أخرى على الجانب الآخر من الطريق، وفيها ثلاثة رجال. كان الشارع ضيّقاً، وقد اصطف السائقون الذين تملكهم الغيظ وراء السيارة. لماذا لم تكن السيارات تتحرك؟ لأن الرجال في السيارة كانوا يراقبون البيت.

أسرعت وخرجت من البوابة الأمامية واتجهت إلى الطريق مبتعداً عنهم. كان حدسي في محله: فقد كانا يتبعانني. دخلت إلى كشك بيع الجرائد الذي كنت أرتاده عادة. كان الرجلان ينتظران في السيارة.

عندما واصلت طريقي تبعاني. من هم هؤلاء الرجال الذين يلاحقون رجالاً آخرين؟

كنت أعرف الشوارع جيداً. فقد كان يوجد تحت خطّ السكة الحديدية، بجانب مرآب الحافلة، ممر ضيّق كنت آخذ أطفالي عبره، قبل سنوات، إلى المدرسة. استدرت ورحت أجري. لم يتمكنا من اللحاق بي بالسيارة.

بالطبع كانا يريدان الإمساك بي بشتى السبل، وكانا ينتظراني عند بداية الشارع. لم يكن هذا هو الموت الذي كنت أريده. أسرعت. وفي نهاية الشارع خرج الرجال الثلاثة من السيارة وأحاطوا بي. كانت وجوههم قريبة جداً مني. كان بوسعي أن أشمّ رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي يستعملونه. كان هناك عدد كبير من الناس في الشارع.

«إلى أين تأخذونني؟».

«ستعرف».

ودمدم أحدهم قائلاً: «أنا أحمل مسدساً».

وضع أحدهم يده فوق ذراعي. أثار ذلك حنقي. فأنا لا أحبّ أن أُحمل ضد رغبتي. ومع ذلك فقد اكتسبت ثقة بنفسي. المسدس، لو كان مسدساً حقيقياً لساعدني ذلك. فلا أظن أنهم سيطلقون النار عليّ. فآخر شيء يمكنهم أن يفعلوه هو أن يفجّروا جسدي بالرصاص.

بدأت أصرخ: «النجدة، النجدة».

وفيما استدار الناس لينظروا حاول الرجال سحبي إلى السيارة، لكني قاومتهم ولذت بالفرار. سمعت صوت صافرة سيارة شرطة. ذعر أحد الرجال. كان الناس ينظرون. ابتعدت ورحت أجري قرب أكشاك السوق المكتظة. فلن يطاردني ثلاثتهم ويطلقون النار وسط هذا الحشد في يوم التسوّق المزدحم.

عندما أتيحت لي الفرصة اتصلت برالف على هاتفه الخليوي من أحد الهواتف العامة.

كان من المستحيل أن نلتقي. فقد كان «غارقاً حتى رأسه في الأدب». ولسوء الحظ فقد أخبرني الأحمق على الفور عن مكانه.

بعد نصف ساعة دفعت باب الحانة ودخلت. فأنا شخص عاطفي وأحتاج دائماً إلى أن أرتاد إحدى حانات لندن الهادئة في فترة بعد

الظهر. كان هناك أشخاص فظّون يلعبون البلياردو، فيما كان آخرون يجلسون بالقرب منهم يدخنون بصمت. لم أر رالف لكني لاحظت لافتة تقول: «المسرح والحمّامات».

تعثّرت وأنا أهبط الدرجات الضيّقة القليلة إلى غرفة رطبة مظلمة مطلية باللون الأسود. كانت هناك مقاعد سينما قديمة، وفي إحدى الزاويا كان هناك شباك تذاكر بحجم خزانة ملابس. وكان يبدو أن الأعمدة تحجب أي رؤية واضحة للمسرح البالغ الصغر. ومن الملصقات عرفت أنهم يعرضون مسرحية «*حديقة الحيوان الزجاجية ودوريان غراي*».

تقدمت مني امرأة مسرعة وقدّمت نفسها باسم فلورانس أوهارا. كانت تريد أن تعرف عدد التذاكر التي أريد أن أحجزها لمسرحية *حديقة الحيوان الزجاجية*، التي كانت تقوم بدور الأمّ فيها. أم أني كنت أريد أن أحجز تذاكر لمسرحية هاملت التي تؤدي فيها دور غيرترود؟ وإذا كنت أريد أن أرى كلا المسرحيتين فستقدم لي عرضاً خاصاً.

عندما قالت هذا فوجئت برؤية الممثل المشهور روبرت مايلز منزوياً في ركن مظلم، ولم يكن حليقاً ويرتدي معطفاً واسعاً وهو الذي مثّل في فيلم كنت قد كتبته منذ سبع سنوات. وقبل أن يبدأ التصوير كنا قد احتسينا الشاي معاً مرات عديدة.

تمعنت في وجه فلورانس. تذكّرت أن روبرت كان يحاول أن يحصل لها على دور صغير في الفيلم. كان أحدهما يحب الآخر، وكانا ما يزالان على اتصال بطريقة ما.

لو لم يكن يسكنني ذلك الجسد التعس لكنا قد تبادلنا أنا وروبرت التحيات ولكنّا قد دردشنا قليلاً. إلا أنه عندما لاحظ أني أنظر إليه، ولكونه عصبي المزاج ومتغطرساً، نهض وخرج.

وفي غضون ذلك ظهر رالف وهو يرتدي بدلة سيد محترم أو

رجل أنيق من العصر الفيكتوري، ويحمل بيده قبعة. تصافحنا وجلست خلفه على مقاعد المسرح.

قال: «لم أتأخر».

«ولا أنا».

«يوجد عرض في ما بعد. أثناء النهار، وأنا أمثّل في مسرحية جديدة مع روبرت مايلز. إنه يجرب الإخراج. أعمل مع أفضل الممثلين الآن».

كان رالف يبدو مرهقاً. بدا وجهه مجعداً أكثر من قبل قليلاً.

قال: «كما أمثّل دور دوريان غراي. وفلورانس تؤدي دور سيبيل. أنا أمضي وقتاً ممتعاً جداً هنا». نظر إليّ وقال: «ما الأمر؟ كيف يمكنني أن أساعدك الآن؟».

قلت لرالف إن ـ مات ـ عرفني، وإنه يكتسي جسداً جديداً هو نفسه، وقد طلب جسداً لأخيه، وهو يلاحقني يريد جسدي. كيف لم يزعج رالف ذلك؟ رغم أنه كان نظرياً في موقع مماثل؟

«إنك تأتي دائماً إليّ بهذه المشاكل، لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟».

«رالف، أي شخص يدرك أن الأشرار، كما هو الحال مع أيّ شيء ثمين جداً ـ ذهب، بيكاسو ـ سيبذلون كل ما بوسعهم للحصول عليه. وكيف لا يفعلون ذلك؟ لكني لا أستطيع أن أخلع هذا الجسد كما أخلع قلادة».

قال: «على الأقل، ليس بعد». تلفت رالف حوله بعصبية، وقال «أيها الغبي الأحمق. لماذا جئت إلى هنا؟ ربما قدتهم إليّ. إذ يمكنهم أن يختطفوني وأنا على المسرح ويسلبوني حتى دماغي».

«كيف سيعرفون أنك مسخ مثلي؟».

«لا تنادني بالمسخ! إلا إذا كنت قد أخبرتهم. وأنا أخشى دائماً أن نضجي سيقضي عليّ. ماذا فعلت لكي تنبّه هؤلاء الناس إليك؟».

الآن، رحت أصرخ بملء رئتي.

«إذا كنت تظن أن هذا شيء لن يعرفه الكثيرون فأنت أحمق».

مال نحوي وقال: «يمكنك أن تحصل على حراسة أمنية كاملة طوال الوقت. فهناك على الدوام رجال مسنون. هذا هو ثمن أن يكون لك قضيب كبير جديد، وكبد جديد».

«ومن أين آتي بالمال من أجل ذلك».

«يجب أن تعمل».

«بماذا؟».

«بماذا تفكر؟ لقد كنت كاتباً. يمكنك أن تبدأ ثانية، لكن بأسلوب آخر. يمكنك أن تصبح... لنقل، كاتباً واقعياً سحرياً!». رأيت فلورانس عند مدخل غرفة الملابس تلوّح له. «تخيّل أين سأكون بعد عشر سنوات، بعد خمس عشرة سنة، بعد عشرين سنة! من يعرف؟ فقد أدير مسرحاً من المسارح العظيمة أو إحدى دور الأوبرا في العالم؟» جلست هناك واضعاً رأسي بين يديّ. «لم أقل لك. سأخبرك الآن. أوفيليا وأنا ـ الفتاة التي تؤدي ذلك الدور، بالطبع ـ سنتزوّج. لم أقل لك هذا كذلك: لقد أنجبت منها طفلاً، عمره أيام قليلة. إنه طفل رائع. كنت أخشى أن يكون غير طبيعي».

«حسناً فعلت».

«هل ستشاهد العرض؟ لعله من الأفضل ألا تأتي إلى هذا المكان، إن كنت مطارداً».

أشرت إلى جسدي وقلت: «كلّ ما أريده هو أن أتخلّص من هذا، أن أخرج من هذا اللحم. أريد أن أفعل ذلك هذه الليلة إذا كان بإمكاني ذلك». راح ينظر إليّ نظرة تنم عن الشفقة. «أظن أنه يمكنني أن أجد المستشفى بنفسي، لكني في عجلة من أمري. ما عنوان المكان الذي أخذتني إليه؟».

«الأمر يعود لك» قال مشككاً.

أعطاني العنوان. لن أنساه. كان سعيداً لأنه تخلّص مني.

قلت: «أتمنى لك حظاً جيداً بالعرض. سآتي وأشاهده بعد أيام قليلة مع زوجتي. إننا نخطّط لقضاء وقت طويل معاً».

في أعلى الدرج سمعت صوت فلورانس خلفي.

«ما هو الاسم؟» صاحت.

«ماذا؟».

«ما هو الاسم الذي سأسجل فيها تذاكر العرض؟».

«سأعلمك».

«ألا تعرف ماهو اسمك؟».

دخلت إلى الحانة صبية شابة تحمل طفلاً رضيعاً. أظن أنه ابن رالف. لكني كنت في عجلة من أمري ولم أتوقف. كان في نهاية الشارع مكتب بائس لسيارات الأجرة، كنت أعرف السائقين الذين يعملون فيه عندما كنت في جسدي القديم، وكنت أستمع إلى قصصهم.

طلبت من سائق الأجرة أن يقود بسرعة. وفيم انطلقنا لم أتوقف عن التطلع حولي، وكنت أحدّق في كلّ سيارة وفي كلّ وجه خشية أن أرى القتلة المحتملين. كنت مشغول البال، ومقتنعاً بأني ما أزال ملاحقاً. لم يكن المكان الذي سأذهب إليه بعيداً، لكن كان علّي أن أتوخى الحذر.

لم يمض وقت طويل على مغادرتنا المدينة حتى قلت للسائق فجأة: «أنزلني هنا».

«ظننت أنك أردت ـ».

«لا، هذا يكفي». كنّا نقترب من منطقة فيها مبانٍ صناعية واطئة شيدت حديثاً. قلت له «اسمع»، ورفعت نقودي بيدي أمامه، «أعطني صفيحة البنزين التي تضعها في مؤخرة السيارة. فقد تعطلت سيارتي في مكان قريب من هنا، وأنا في عجلة شديدة من أمري».

وافق. نزلنا وفتحنا غطاء السيارة. أعطاني الصفيحة فلففتها في كيس بلاستيكي أسود. حملتها وتوجّهت إلى حانة كنت قد شاهدتها، حيث احتسيت كأسين من المشروب ودخلت إلى المغسلة. قفلت باب المقصورة وخلعت ثيابي.

استغرق ذلك بعض الوقت، وكنت حذراً ومفعماً بالنشاط والحيوية. عندما انتهيت عدت وارتديت ثيابي، وتركت الحانة واجتزت الشوارع الكئيبة باتجاه المبنى، أو «المستشفى». ضللت الطريق قليلاً، لكن العنوان كان صحيحاً. كان مخطط الشوارع والبنايات الأخرى ذاته. ثم رأيته. لقد تغيّر المكان. لعلي كنت في هذا المكان منذ سنوات عديدة. وكانت البناية التي ظننت أنها المستشفى محاطة بالأسلاك الشائكة، وكان العشب ينبثق من بين الشقوق الخرسانية. وأمام المبنى كانت توجد خزانة أضابير مهجورة مرمية على جانبها. أي نوع من التنكّر المتقن كان هذا؟

تسلّقت السياج وانسللت عبر الأسلاك التي كانت مقطّعة في عدّة أماكن. بدا أن أحداً لم يكن مهتماً بالأمن. حتى أن الباب الأمامي «للمستشفى» لم يكن مقفلاً. كان الظلام قد بدأ يخيم على المكان. جربّت الأنوار، لكن الكهرباء كانت مطفأة. لعل المشردين كانوا ينامون في هذا المكان على المفارش المتعفّنة. كما بدا أن المكان قد خُرّب ونُهب على يد أطفال المنطقة. أحسب أن كلّ الأشياء المهمة قد أُخذت منذ فترة طويلة، ولم تكن هناك أجساد لا جديدة ولا قديمة. لم أعرف ماذا أفعل الآن، لكن لم يكن ثمة سبب لبقائي هنا.

سمعت صوتاً.

8

«لم نسعَ للإمساك بك في وقت سابق. كنا نعرف أنك ستأتي إلى هنا».

برز مات من الظلام. كان المصباح مسلطاً على وجهي. غطّيت عينيّ.

سألت: «هل كنت تعرف هذا المكان؟»

«كنت أعرف أن القافلة ستمضي. وأنا ما أزال بحاجة إلى هذا الجسد».

«يبدو أنني سأحتاجه لنفسي».

«قلت لك إن شخصاً آخر بحاجة إليه أكثر منك».

«أخوك؟».

«ماذا؟ لقد جعلتني أقلق عليه».

قلت: «يمكنك أن تأخذ الجسد. فما يزال فيه الكثير من الحياة. كلّ ما أريده هو أن أستعيد جسدي القديم».

«تقدم إلى هنا»، وأشار إلى الباب، وأضاف: «رائحة هذا المكان سيئة، أم أنها رائحتك؟».

«إنها رائحة المكان أيضاً».

قال: «يا إلهي، ماذا يفعلون بحق الشيطان، أيحرقون الأجساد هنا؟».

محاطاً برجاله الثلاثة تبعته إلى غرفة أخرى. لاحظت أنه لم تكن توجد نوافذ، وكانت الأرض مصنوعة من الاسمنت يتناثر فوقها الزجاج المكسور، وحطام آخر. كان البلاط قد أُقتلع وحُطّم. وكانت قد وضعت أضواء نيون لامعة بطريقة سيئة. وكان ثمة رجل يرتدي رداء الأطباء الأزرق يقف مع مساعدين اثنين، وكانوا جميعهم مقنّعين. وفي وسط الغرفة كانت هناك طاولة عمليات تستخدم في غرف العمليات المؤقتة المستخدمة في ساحات المعركة، ووضعت الأدوات الطبية في صواني فولاذية. رحت أتطلع حولي. جسدي القديم ربما كان محفوظاً في غرفة أخرى، وأنهم سيحضرونه على عربة. كنت في غاية الشوق لأراه مرة أخرى، مهما بدا مهترئاً أو شبيهاً بالجثة.

«أين جسدي القديم؟» سألت الرجل الذي حسبت أنه الطبيب. «فلن أخرج بدونه».

نظر إلى مات، لكن أحداً منهما لم ينبس بكلمة.

قلت: «أرى أنه لا يوجد هناك جسد. لقد ذهب». تنهّدت. «يا للخسارة».

قال «حظّ سيء. إنك ستذهب إلى الخلود. عندما أكون قد انتهيت من كل هذا سننطلق أنا وأخي إلى هونولولو من أجل لمّ شمل العائلة. المشكلة الوحيدة هي أنه سيذكّرني بك».

رأيت على الأرض شيئاً يشبه ثلاجة مجمّدة طويلة ملقاة على جانبها. كانت كبيرة تتسع لجسد بحجم جسدي. وكان هناك صندوق خشبي أيضاً يتسع لدماغ ميت. فالأدمغة لا تأخذ حيزاً كبيراً، كما أظن، وليس من الصعب التخلّص منها.

«هلّ يمكنني أن أدخن سيجارة؟» قلت.

«هذا سيضر بصحة أخي».

قلت: «آخر سيجارة، ثم سأقلع عن التدخين. أعدك بذلك».

فقال مات: «يسرني أن أسمع ذلك. حسناً، خذ واحدة».

قدم لي أحد الرجال سيجارة، وقال: «وغد».

فقلت: «وأنت أيضاً».

تقدم الرجل نحوي. فقال له مات: «لا تلحق به أي أذى! لا كدمات، ولا تجرحه».

قلت: «سأخلع ثيابي الآن، أدخن السيجارة، وبعدها أكون مستعداً لك».

«أحسنت»، قال مات. «كنت تطلب الموت وها أنت ستحصل عليه الآن». عندما خلعت سترتي وقميصي نظر إليّ مات باستحسان. «تبدو في حالة جيدة. لقد حافظت على شكلك».

«هيه، أنتم، انظروا إلى قضيبي». ورحت ألوّحه لهم. «ألا تحبّون أن يكون عندكم واحد مثله؟». قال مات: «ما رائحة هذا العطر الذي تستخدمه بحق السماء؟».

أشعلت قداحتي، وخطوت إلى الوراء.

قلت: «إنه بنزين. لقد نقعت نفسي به. لم أضع على شعري بنزيناً من قبل. إذا اقتربتم مني يا شباب سيحترق هذا الجسد الذي تريده مثل حلوى عيد الميلاد. وبالطبع ستحترقون أنتم أيضاً».

قرّبت القداحة من صدري. لم أكن أعرف المسافة التي يجب أن أقربّها إليّ دون أن أتحوّل إلى رماد. فأنا أفضّل أن أضحي بنفسي، ولا أن أشعر بالمهانة التي ستكون مصيري. سأنتهي بطريقة مثيرة، سأحترق مثل مشعل، أصرخ وأنا أجري في الطريق.

تراجع الجميع ما عدا مات. انسحب الأطباء. أراد مات أن يمسك بي. وكانت هناك لحظة، لكي أكون صادقاً، كاد يمسكني بها. لكن ذعر الآخرين بدا أنه انتقل إليه. لم يعرف ماذا يفعل. كان كلّ ما يمكنه أن يفعله هو أن يكسب الوقت.

لم يكن ثمة شيء ورائي سوى الباب الذي كان مفتوحاً. التقطت قميصي وبنطالي قبل أن أستدير وأهرب. رحت أجري، وأظن أنهم أخذوا يركضون ورائي، لكني كنت أسرع منهم، وكنت أعرف طريق الخروج من هناك.

تسلّقت السياج، ارتديت ثيابي وواصلت الجري. كان الظلام قد خيم لكن جسدي كان رياضياً، وكنت أعرف إلى أين سأذهب. ركبوا سياراتهم وطاردوني، لكني كنت حذراً الآن. فقد ابتعدت. ولم يعد بوسعهم أن يعثروا عليّ.

لم يخطر ببالي لفترة طويلة أن أفكّر في المكان الذي سأذهب إليه. عندما أحسست بالأمان جلست أستريح في حديقة أحد البيوت. كنت بحاجة إلى أن أحتسي كأساً من الشراب، لكن رائحة العرق والبنزين معاً لم تكن مستحبة. وآخر شيء كنت بحاجة إليه هو النظرات المريبة. كنت أحمل بطاقات الإئتمان، لكني أدركت أنه لا يوجد مكان بوسعي أن أذهب إليه الآن، فلم يعد بإمكاني أن أعود إلى زوجتي، إلى فندقي، أو البقاء مع أصدقائي. إذ لن أكون في مأمن حتى يموت شقيق مات، أو أن يحوّل مات اهتمامه إلى جسد آخر. ومع ذلك فقد يظهر مجرمون آخرون ويأخذون في مطاردتي. كما لو كنت أكتسي جسد الموناليزا.

كنت غريباً على الأرض، نكرة، لا شيء، لا أنتمي إلى أي مكان، جسد وحيد، محكوم عليه أن يبدأ من جديد في كابوس الحياة الأبدية.

الجسد

ولد حنيف قريشي وترعرع في كنت بإنكلترا في العام 1954 لأب باكستاني وأم إنكليزية. وعانى في مراحل حياته المبكرة من مشاكل العنصرية والتعددية الثقافية في إنكلترا بسبب بشرته السمراء التي تطرق إليها في معظم أعماله. وقد بدأ الكتابة وهو ما يزال في سن المراهقة. درس الفلسفة في جامعة لندن، وعُيّن في العام 1982 كاتباً مقيماً في مسرح البلاط الملكي. وفي العام 1984، دخل قريشي عالم السينما من أوسع أبوابه من خلال ترشيح فيلم «مغسلتي الجميلة» لجائزة الأوسكار لأفضل سيناريو، وحازت روايته «بوذا الضواحي» على جائزة أفضل رواية أولى في العام 1990، والتي ستصدر ترجمتها عن دار ورد.

إن نشر الدار لرواية «الجسد»، هو استمرار لنهجنا في تقديم الأعمال الروائية المميزة لقارئنا، فبعد أن قدمنا له رواية «الحميمية»، والتي حازت على إعجاب وتقدير القراء العرب، نقدم له رواية «الجسد»، التي تُعتبر في نظر الكثير من النقاد والباحثين في الشأن الروائي من أهم أعمال «حنيف قريشي» الإبداعية الرائعة.

الناشر

b 49470
BD 2-500